التربية الوطنية والإرشاد الفكري

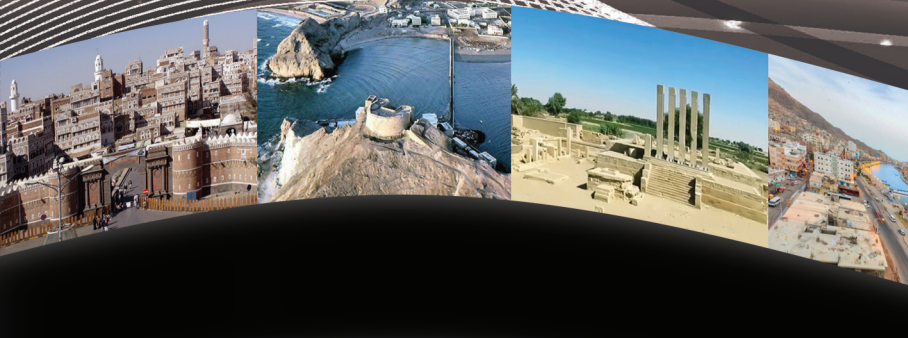

التربية الوطنية والإرشاد الفكري

د. ثابت الأحمدي

اسم الكـــتاب: التربية الوطنية والإرشاد الفكري (منهج طلابي)
المـــؤلـــف: د. ثابت الأحمدي

المقـــــــاس: ١٧ في ١٢
عدد الصفحات: ١٥٢

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب: ٤٠/٢٠٢٢ (مكتبة مأرب العامة)
الطبعة الأولى: مايو ٢٠٢٢م.

إنّ قيمةَ أيِّ شيءٍ من قيمة ما يتصلُ به، وقيمةُ الكلمة متصلةٌ بالإنسانِ أولا وآخرًا، ومن هنا يأتي اهتمامُنا بالكلمة، كرسالة، والكلمة كفكرة.

الفكرةُ جوهرُ كل تحوُّلٍ في حياة الفرد، كما هو الشّأنُ في حياة المجتمعات والشُّعوب والأمم، ولم تكن البداياتُ الأولى للحضارات الكبرى في حياة البشريةَ إلا كلمة أُطلقت، أو فكرة صَدحت، ولم يبدأ عظماء التاريخ مشاريعَهم الكبرى إلا بالكلمة والفكرة.

محمد عيضة شبيبة
وزير الأوقاف والإرشاد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمـدُلله رب العالمـين، والصّـلاةُ والسّـلام عـلى رسـوله الصّـادق الأمـين؛ أمـا بعـد:

يقتـضي واجبُنـا الوطنـي اليـوم إعـادة النظـر في بنيـة الثقافـة العامـة، والثقافـة الوطنيـة بشـكل خـاص، والتـي تُعتـبر واحـدة مـن الضمانـات السياسـية لاسـتقرار الشـعب وشـيوع السـلام بـين أبنائـه، خاصـة ونحـن نعيـش اليـوم أجـواء الصراعـات السياسـية التـي تعصـفُ ببلادنـا، ولم يكـن أصـلُ وسـبب هـذه الحـروب إلا البعـد الثقـافي والفكـري الـذي تعـرض لخلـلٍ كبـير، دون أن نـدركَ عواقـب ذلـك مـن وقـت مبكـر.

في إطـار تقسـيم الـدول ثقافيًـا وتاريخيًـا هنـاك دولٌ ذات بُعـدٍ تاريخـي وحضـاري أصيـل، كالصـين والهنـد ومـصر واليمـن والعـراق وسـوريا وغيرهـا. وهنـاك دول أسسـتها الصُّدفـة السياسـية، خاصـة إبـان تعملـق أوروبـا الأطلسـيّة ــ وهـي القلـب الامبراطـوري للعـالم الحديـث ــ التـي أعـادت تقسـيمَ كثـيرٍ مـن البلـدان وفـق رؤاهـا ومصالحهـا الخاصّـة، وأضفـت عليهـا بعـدً ذلـك الشرعيّـة السياسـيّة، خاصّـة مـع بـروز المنظـمات الدوليـة الكـبرى، «الأمـم المتحـدة أنموذجـا".

تسـتندُ الـدولُ ذات الامتـداد الحضـاري إلى رصيـدٍ تاريخـي يشـكلُ إلى اليـوم ثقافتهـا وفلسـفتها وأخلاقهـا، وفقـا لمعطيـات محـددة هـي مـن نتـاج الجغرافيـا إلى جانـب التاريـخ. ورغـم التقـدم المهـول اليـوم إلا أن هـذه

الدول لا تزال مرتهنة في جزء من ثقافتها إلى الرصيد القومي المتراكم الذي يتجلى في ملامحها القومية المتوارثة، ويصعب؛ بل ويستحيل تجاوزه.

ونحنُ في اليمنِ إلى جانب هويتنا التاريخية القديمة بما تحمله من موروثٍ حضاري كبير، لدينا أيضا مرجعيتنا الفكرية من ديننا الإسلامي الحنيف، والتي تُعتبر ضمانة فكرية وثقافية للسّلام والبناء والعيش المشترك؛ إذ الدينُ في حد ذاته رافعة من روافع البناء المجتمعي، ويصعبُ تجاوزه حتى من قبل الدول العلمانية؛ إذ يمثل الدين ــ على الأقل في جزء منه ــ ثقافة عامة لها. نتكلم هنا عن الدين الإسلامي الصحيح من منابعه الأصيلة، لا عن المفاهيم الدينية لدى البعض التي أساءت للدين وشكلت كارثة في الوعي، وكارثة في التصرفات.

هذا الكتابُ إعادة اعتبار للهُوُية اليمنيّة التي تعرضت للتجريف من قبل بعض أبناء اليمن أنفسهم، نقدمه لأبنائنا الطلبة، في طريق صياغةِ الشخصيّة اليمنية الجديدة، بثقافتها العربية الأصيلة، وفكرها الإسلامي الصحيح.

(رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) الأعراف: ٨٩.

المؤلف

١٥ شوال ١٤٤٣هـ

١٦ مايو ٢٠٢٢م

القرآن الكريم كضمانة قومية

إلى جانبِ كون القرآن الكريم كتابَ روح وهداية، وموجها عام لحياة البَشرية، فهو ـ أيضا ـ ضمانةٌ قومية وسياسية للأمة العربية على وجه التحديد، كما هو كذلك للأمة الإسلامية جمعاء.

ما يغيب عن ذهنية البعض أن القرآن الكريم حين تنزل في عهد الرسالة كادت العربُ ـ آنذاك ـ تفقد وحدتها اللغوية، بحكم تعدد اللهجات التي اتسعت حتى لكأن كلَّ لهجة لغةٌ مستقلة، أو شبه مستقلة، كما سنبين، وهي ظاهرة طبيعية بين اللغات؛ إذ تتفرع لهجاتها وتتعدد، كما هو الشأن مع اللاتينية التي تتحدرُ جميعُها من أصل واحد، وإن كانت غير بعيدة عن السامية القادمة من بلاد الشرق، حسبما يفترض الكثير من الدارسين، وحسبما تشي بعض أبجديتها المتوافقة مع الأبجدية العربية، وهذا موضوع يطول شرحه..

قديما ـ ومع بداية عصر الإسلام ـ كاد الاغتراب اللغوي يفرض سطوته على اللسان العربي، إلى حد قول أبي عمرو بن العلاء: «ما لسان حمير بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا» بصرف النظر عن الجدل المستعر الذي أثاره المستشرق «مارجليوث»، وتبناه ـ عربيا ـ تلميذه طه حسين، دون أن يكلف نفسه عناء البحث والتقصي، لاستقراء الفكرة من جميع جوانبها، وهي إحدى زلاته، مع أن

الأديب أحمد محمد الشامي قد أشار في كتابه تاريخ اليمن الفكري إلى أن الدكتور طه حسين قد عدل عن فكرته مؤخرا، إلا أننا لم نجد ما يؤكد ذلك عمليا من طه حسين نفسه.

وللقارئ أن يتخيل أن هذا الاغتراب اللغوي داخل الجزيرة العربية نفسها، على الرغم من وحدتها الجغرافية والثقافية والاجتماعية والتجارية يومها، فما بالك بالحال مع أطراف الجزيرة في الشام وبلاد المغرب ومصر آنذاك؟!!

وإلى جانب هذه المقولة الشهيرة التي انطوت على كثير من الجدل، فثمة دليل أكثر صراحة، وخالٍ من أي جدل، وهو حديث أبي هريرة لما قدم من دَوْس عام خيبر، لقي النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد وقعت من يده السكين، فقال له: «ناولني السكين»! فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة، ولم يفهم ما المراد بهذا اللفظ؛ فكرر له القول ثانية وثالثة، وهو يفعل كذلك، ثم قال: آلمدية تريد؟ وأشار إليها، فقيل له: «نعم»! فقال: أو تسمى عندكم سكينًا؟ ثم قال: والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ، ودَوْس بطن من الأزد. وهم عرب أقحاح، وبينهم وبين قريش صلة وقربى، ومع هذا لم يكونوا يعرفون معنى «السكين"!.

باختصار.. كان القرآن الكريم هو المنقذ الذي وحد لغات الناس، وقد كانت على شفا التفرق. وبتوحيد لغتهم، ــ ومع الدين الجديد ــ توحدوا سياسيا واجتماعيا وثقافيا، فبنوا حضارة، وكان لهم من المجد ما لهم. وكل ذلك بفضل الكتاب الجديد «القرآن الكريم» الذي وحد ألسنتهم، كما وحد عقولهم.

وقد وضح الأصفهاني في موسوعته اللغوية «الأغاني» كثيرا من مظاهر هذا الاختلاف وعوامله، كالكشكشة والكسكسة والطمطمانية والغمغمانية واللخلخانية، وغيرها، إلى حد أن بعض اللهجات العربية قد مسّت قواعد اللغة نفسها، المتعارف عليها، معنى ومدلولا، لا ظواهرها الصوتية أو تغيراتها الصرفية فحسب؛ ولابن جني في «الخصائص» أيضا ما له، وكثير من كتب اللغة وتاريخها، وخاصة تاريخ آداب العرب للرافعي.

والدارس للغة العربية بعمق وتبحر يدرك كمَّ ومقدار الألفاظ العربية «القاموسية» التي لم ترد في القرآن الكريم، والتي أسقطت تماما من تعاملاتنا اليومية، وصارت غريبة علينا اليوم، كما صرنا عنها غرباء، ومن يحاول أن يتكلم بها اليوم عُدّ من المتحذلقين؛ بل لن يفهمه أحد، وسيكون حاله كمن يتكلم بلسان أعجمي بين قومه. وأكاد أجزم اليوم أنه لولا القرآن الكريم لفقدنا بلداننا عربية كثيرة، كمصر وبلاد المغرب، وأطراف العراق والشام؛ بل لن يفهم الجنوبي لغة الشمالي من الجزيرة العربية نفسها. وللمُنظِّر العروبي المعروف الدكتور ساطع الحصري كلام مهم فيما يتعلق باللغة ودورها في الوحدة بين الناس؛ حيث اعتبر التاريخ المشترك واللغة ركائزَ الهوية لأي أمة، خاصة اللغة التي رآها أهم من التاريخ في صياغة الشخصية وتشكيل هويتها. فاللغة كما يرى «تؤثر في التفكير تأثيرا عميقا، وتسدده، وتوجهه توجيهًا خاصا، فاللغة القومية تعتبر بمثابة الوعاء الذي تتشكل به، وتُحفظ فيه،

وتنتقل بواسطته أفكار الشعب. إن لغة الآباء والأجداد مخزنٌ لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتاريخ والفلسفة والتقاليد والدين، فقلبُ الشعب ينبضُ في لغته، وروحه تكمن في بقاء هذه اللغة".

ما تنبغي الإشارة إليه هنا، في القواميس وصناعتها، فإنها بقدر ما خدمت اللغة وحفظت كثيرا من معانيها، فهي أيضا ــ ومن جه وآخر ــ قد جنت جناية كبرى على جزء منها، من خلال ما تم نسيانه، أو تناسيه، ولم يتم تضمينه أو الإشارة إليه، وما لم يتم تضمينه القواميس ربما أكثر، خاصة من لغة الجنوب، أهل الإعراب الأوائل حسب إشارة حسان بن ثابت، شاعر الرسول، إلى حد اعتقاد البعض أن أي لفظة لم ترد في أي معجم من معاجم اللغة ليست عربية، ولا يعتد بها. وهو وهْمٌ أساسه التعصب، أو الجهل؛ لأن لغة قريش هي اللغة الجامعة للعرب بعد الإسلام؛ لكنها لم تكن الوحيدة. وهنا كلام قد يطول شرح تفاصيله. وللمستشرق «بروكلمان» كلام مهم في «تاريخ الأدب العربي".

والواقع إن العولمة اليوم تفرض على الأمة العربية صياغة استراتيجية جديدة للغتها، كجزء من الحفاظ على هويتها الثقافية والتاريخية، ولئلا تنجرف الشعوب الضعيفة في متاهات وسراديب العولمة، ولن تجد أفضل من القرآن الكريم أداة توحيد وتوحد يحفظ للأمة هويتها وثقافتها الذي حفظها في القديم، وقادر على أن يحفظها اليوم، وفي الغد. فاللغة هي الوعاء الذي يحفظ للأمة

هويتها وثقافتها، كما أشرنا آنفا، وبين يدينا نموذج حيٌّ اليوم، وهو الأكراد ــ الهوية المغدور بها ــ الذين استطاعوا الحفاظ على هويتهم وثقافتهم من خلال الحفاظ على لغتهم الكردية على الرغم من المؤامرة الكبيرة على الأكراد، وعلى الرغم من تفرقهم في أكثر من دولة عربية وغير عربية.

ختاما.. لغتنا اليوم تعاني الضياع، ولاستعادة دورها الريادي يجب أن تكون هناك استراتيجية عربية كبرى للاضطلاع بالدور السياسي والقومي للغة العربية، من خلال الاهتمام بكتاب الله عز وجل، ومن ذلك مدارس تحفيظ القرآن الكريم التي يجب أن تُدعم، ليس محليا فحسب؛ بل وعلى كل الشطوط الجغرافية المحيطة بالعرب، كشرق أفريقيا وشمال العراق «تركيا وإيران» وشطوط البحر الأبيض المتوسط كاملة.. فلا شيء يفتق اللسان ويحفظ الفصاحة كالقرآن الكريم، حفظا وتجويدا وتفسيرا؛ ذلك أن القرآن الكريم قد ارتقى باللغة العربية من لغة مبارزة شعرية معهودة عن العرب قبل الإسلام، إلى لغة فقه وتفسير ودين وفلسفة واجتماع، زادها الإسلام انتشارا وتمددا، فأثرت وتأثرت بما حولها من اللغات الأخرى، وهو دليل مرونتها واتساعها ورحابتها. وهي وإن كانت لغة أدب بالمقام الأول، فهي أيضا لغة علم، تستوعب كل جديد وتحتوي كل اكتشاف.

* * *

مدخل إلى حضارة اليمن

اليمن من بلدان الحضارات القديمة، إن لم تكن أقدمها جميعا، مثلها مثل حضارة بلاد الرافدين في العراق، وحضارة وادي النيل في مصر والسودان، وكذا حضارة الهند والصين واليونان، مع الإشارة هنا إلى أن هذه البلدان وجدت من الاهتمامات الأثرية ما لم تحظ به اليمن أبدا، فاليمن تعتبرُ بكرًا حتى الآن، ولّما تكتشف بعد، مع أن ثروتها الآثارية تُعتبر من الثروات القومية والسيادية التي لا تقل أهمية عن ثروة النفط والغاز والأحجار الكريمة.

وقد تكلم المؤرخون والرواة عن حضارة اليمن الكثير، مقارنين إياها ببقية الحضارات، فهذا المؤرخ العربي الدكتور عدنان ترسيسي، يقول: «وإننا وإن كنا نجهلُ الشيء الكثير عن المراحِل السَّابقة التي مرت بها الحَضَارةُ اليَمَنِيَّة قبل وصولها إلى تلك الحقبة المتطورة بعهد ملكة سبأ التي خلَّد ذكرَها القرآنُ الكريم، فإننا نعلمُ من الخُطوط العريضة التي اطلعنا عليها، والخاصَّة التي عرفها العَرَب في اليَمَن تُعتبر من أقدم الحَضَارَات العالمية، وأن بني قحطان من السّاميين، وكانوا من قادة الحياة المتطورة في بداية معرفتنا للتاريخ، كما أنّ بعضَهم وصل إلى سدة الحُكم، وأصبح من الأسر المالكة في العهد الفرعوني القَديْم بوادي النيل. وفي عهد حمورابي في بِلاد ما بين النهرين، ولا تزال الأسر المالكة في بِلاد الحبشة تنتسب إلى ذرية سليمان وبلقيس حتى يومنا هذا".

وذكر المؤرخ جورجي زيدان في كتابه «التمدن الإسلامي» أن التَّمدن العربي القَديْم هو أصْل التمدن المصري القديم، وأن عرب اليَمَن القحْطَانيَّة قد تمدنوا تمدنا لا تزال آثارُه مطمورة تحت الرمال، من قبل أن تتمدن الإسماعيْليَّة، كما كان المعينيون والسبئيون والحميريون واسطة عقد التجارة بين الشَّرق والغَرب..

وقال البحاثة الأثري المستشرق «سانس»: إن اليَمَن سابقة في تمدنها على مصر وبابل، وإنها هِي البلاد التي هاجر منها إلى مصر الفراعنة العظام، وحملوا معهم العلم والحكمة والزراعة.

ويقول المستشرق جون فيلبي/ عبدالله فيلبي»إن مُشَاركة أهْل بِلاد العَرَب الجنوبيَّة في بناء الحَضَارة الإنسانية أمرٌ لا يكاد يمكن فَي وصفه المغالاة.. وقَدْ يحسن بنا أن نذكر أن بِلاد العَرَب الجنوبيَّة على أقل تقدير طوال ألفي عام السَّابقة لظهور محمد قوة من القوى العُظمى على الأرض، لها أعمالها التجارية والفكريَّة، ثم غدت بعد ذلك من قُطب الرحى من امبراطورية عالميَّة عُظمى، تم لها بوحي الإِسْلام ومتابعته، فحملت مشعلَ المعرفة، متوقدة في عهود كان يغمر فيها الظلام أوربا، ولكنها قد نسيت ماضيها، أو انصرفت عن تقدير ما قامت بإنجازه من أعْمَال في قديمها العتيد..

لذا لا عجب أن يبلغ اليَمَنيُّون من الأبهة والمجد والرفاه إلى حد أن يعمل أحد ملوكهم، وهو أسعد الكامل على تعبيد الطريق من مقر إقامته في أرض يحصب بظفار «إب حاليا وتحديدا يريم منها»

إلى مكة المكرمة؛ بل عمل على «تبليطها» بالأحجار المصْلولة إلى هناك، ولا تزال بعض من مَقاطع هَـذِه الطريق تُعرف باسمه إلى اليوم، كصلول «خيوان» من بلد حاشد، ونقيل الغولة المطل على البون من همدان، وأيضا طَرِيْق أسعد الكامل التي لها بقية اليَوم في بِلاد عسير!

لقد حكم السبئيون إلى جانب جنوب الجزيرة العَربيَّة أيضا بِلاد الحبشة، التي كانت جزءا من الممالك السبئية، وأن ملكة سبأ كَانت تحكم البَلدين معا، ولهذا يعتبر ملوك الحبشة أنفسهم من سُلَالَة سليمان وبلقيس عليهما السلام وهناك نقوش مسندية تعود إلى القَرْن العاشر قبل الميلاد في هضبة أثيوبيا، وفيما يُعرف بمعابد «يحا» هناك.

* * *

ملامح اليمن الحضارية قبل الإسلام

اصطلح بعضُ المؤرخين ـ المسلمين والعرب تحديدًا ـ على تسمية فترةٍ من تاريخ العصر الوسيط بالعصر الجاهلي، أي فترة ما قبل الإسلام، اختلف البعضُ في تحديد فترتها « يحددها مؤرخو الأدب العربي ب ١٥٠ سنة قبل الإسلام".

ومصطلح «الجاهلية» بقدر ما يحملُ من إشارةٍ تاريخيّة إلى الفترة المذكورة من وجهة نظر المؤرخين، أيضًا يحملُ مدلولا ثقافيًا ودينيًا، لدى الكثير؛ إذ ينفي المصطلح معالم المدنية والرفاه والرخاء السائد قديما بأدوات ذلك العصر وشروطه.

تأسست في الجزيرة العربية وما حولها حضاراتٌ عدة، ففي الجنوب كانت حضارة كل من: سبأ ومعين وأوسان وقتبان وحمير. ومن الشرق حضارة بابل في العراق، ومن الشمال والشمال الغربي عاد وثمود وتدمر، وتتصل بها أيضا حضارتا آشور وفينيق في سوريا وبلاد الشام عمومًا، وإن كان الفينيقيون ينحدرون من أصول يمنية، كما يقررُ بعضُ الباحثين. كما تتصلُ أيضًا بهذه الحضاراتِ الحضارةُ الفرعونيّة في مصر، وبقايا من الحضارة الرومانية في المغرب العربي والشام، ومنها ما عُرف بمُدنِ البحار الحضارية في العصر الوسيط، مثل قرطاجة والاسكندرونة والاسكندرية وحيفا، وغيرها. وهي حضاراتٌ لها امتدادُها الزمني عبر آلاف السنين، وكانت على قدرٍ كبيرٍ من

التمدن والتحضر، ويصعبُ إسقاط كلمة «الجاهليّة» عليها، ومن الاستحالة التقاء الحضارة والجاهلية معا..!

ويُهِمُّنا في هذه التناولة نفي صفة الجاهليّة عن أهل اليمن قبل الإسلام؛ كون اليمنيين أهلَ حضارة ومدنيّة أدهشت الشرقَ والغربَ معًا، وقد أشاد بهذه الحضارة المؤرخون الأجانب قبل العرب والمسلمين منذ مئات السنين وحتى اليوم؛ علمًا أنّ أرضَ اليمنِ لا تزالُ مسرحًا كبيرًا للاكتشافات الأثرية التي تعكسُ مدى تمدُّن ورُقيّ هذا الشعب في مرحلة ما قبل الإسلام.

نعم.. اليمنيون أهلُ حضارة، وليسوا من الجاهليّة في شيء، وإن ظهرت بعضُ ملامح ما نعتبره اليوم جاهلية، لكنها كانت بفلسفة الزمان والمكان من السائد والمستساغ آنذاك، كما هو الشأن في كل المجتمعات، وما يدرينا اليوم، فلعلّ بعض سلوكياتنا وتصرفاتنا الحالية قد تصبح في الأزمنة القادمة مسخرة لأجيال تلك الأزمنة.

وحتى لا يكون الكلام من قبيل الادعاء، أو السّرد الخيالي، نشير هنا إلى أبرزِ ملامحِ حضارةِ اليمنِ القديم، استدلالا وتوكيدًا لما ذهبنا إليه، فبالمثال يتّضح المقال.

١ــ العُملة.. كانت لليمنيين عملة نقدية موحدة، بمختلف وحداتها النقدية، يتعاملون بها في أسواقهم، منذ آلاف السنين، خلافا لغيرهم الذين كانوا يعتمدون المقايضة العينيّة في البيع والشراء، أي بيع التمر بالحليب، وبيع البر بالشعير، وبيع اللحوم بالأجبان على سبيل المثال..!

٢ــ كان لليمنيين قبل الإسلام تقويمٌ شمسي، وآخر قمري، وكانوا يحسبون بهما السنوات والشهور والأيام، ويعتمدون عليهما في مواثيقهم وعهودهم التجارية والسياسية والاجتماعية، كما ذكرت نصوصُ المسند.

٣ــ كان اليمنيون أهل تجارة وصناعة؛ وليست أي تجارة أو أي صناعة، كانت تجارتهم داخلية وخارجية، بقوانينها ولوائحها المنظمة لذلك، وكانت صناعاتهم استخراجية، لما في باطن الأرض، لا مجرد صناعات حرفية تقليدية؛ بما في ذلك صناعة الذهب والفضة والأحجار الكريمة، وكانوا متحكمين بطرق التجارة العالمية التي عُرفت فيما بعدُ بطريق الحرير وطريق البخور، البرية والبحرية. وقد برعوا كثيرًا فيها، ووصلوا إلى حد الثراء الفاحش؛ أمّا في صناعة السُّفن فلم يكن يُدانيهم أحد في ذلك؛ بل وفي قيادة السفن في مختلف المواسم، إذ كانوا ملاحين مهرة، وكانوا سادةَ البحار، كما ذكر المؤرخون الأجانب، وخاصة هيرودت واسترابو، وسانس وفيليب حتى، وغيرهم. ولم تكن هندسة القصور والمعابد والمحافد القديمة إلا انعكاسًا للتقدم العلمي والحس الحضاري للشعب. ولا ننسى هنا الإشارة إلى أن سِلعتَيْ: البخور واللبان كانتا تُباعان بوزنهما ذهَبًا لدى المجتمع الغربي؛ حيث كانوا يستخدمونهما هناك في المعابد، وفي طقوسهم الجنائزية والكنسية، وكانت من هدايا الملوك وكبار القوم لبعضهم البعض، إلى جانب

استخداماتها في والتطبيب.

٤ــ كانت لليمنيين قبل الإسلام منظومة قوانين سياسية ودينية، نظّمت حياةَ الناسِ في مختلف الجوانب، بعضُ تلك القوانين لا توجد اليوم على تقدم الزمن، إلى حد أن بناء المنازل كان يتمُّ بتصريحات رسميّة من مجلس المدينة، وكذا تأسيس مجاري المياه أو تعديلها، وهذا مثبت بالنصوص المسندية، وكتب المؤرخين. قال فيليب حتى، يصفُ تَشريعَاتِ حَضَارَة اليَمَنِ القَديم، مفضِّلا إياها على تَشريعات «حمورابي» وتشريعات موسى وشرائع الحثيين: «.. أما شَرائعُ عرب الجنوب فتمتازُ بصفات النُّضج الشَّرعي، والبلوغ السِّياسِي، وتدل على نظام دولة تلوح من خلاله أوضَاع الحكم النيابي، وربما لم يكن في آثار القِدم السَّحيقة ما يُدانيها رُقيا".

أما عن التعاليم الدينيّة فثمة منظومة تعاليم وتوجيهات دينية كبيرة، أقرّها الإسلام بعد ذلك كاملة، أو شبه كاملة، كما سنشير إليها في وقفة خاصة بها.

٥ــ كان اليمنيون على قدرٍ عالٍ من الرفاه الاجتماعي إلى حد تزيين آنيتهم بالذهب والفضة، وتأثيث مساكنهم بأفخر الرياش والأثاث، وكانوا مستقرين في البيوت والقصور، ولم يكونوا بدوًا متنقلين في الخيام، كما ذكر المؤرخون، ومنهم استرابو الذي سمى اليمن: «بلاد الطّيب» والطّيبُ من أسماء الذهب قديمًا؛ بل لا يزال بعض سكان اليمن يطلقون على الذهب:

«الطيب/ الطيوب» إلى يومنا هذا. وفي ذلك قال الشاعر في وصف مارب:

ومارِبُ قد نطقت بالرُّخام وفي سقفها الذهبُ الأحمرُ

ويقول شاعر الرسول حسان بن ثابت مفاخرا باليمن، ومخاطبا قريش:

تعلمتم من منطق الشَّيْخ يعرب
أبِينا فصرتم مُعربين ذوي نفر
وكنتم قديمًا ما لكم غير عُجمة
كلاما وكنتم كالبهائم في القفر

كما يقول الشاعر دعبل الخزاعي في ذات المعنى:

من أية ثنية طَلعت قُرَيْشٌ وكانوا قبلنا مُتَنَبِّطِيْنا

٦ــ ازدهرت الفنونُ في اليمن القديم بصورةٍ لا مثيلَ لها اليوم، على تقدم الزمن، وكما يقال: «إنّ الفنونَ حربُ الأمم المتقدمة، بينما الحروبُ فنُّ الأمم المتخلفة»، فقد ازدهر النحت والرسم والتصوير والغناء إلى حد أن وُجد من الملوك اليمنيين فنانين، كالملك الحميري «ذوجدن»، «السّامد» وسامد في الحميرية تعني: المغني، أو المُطرب.

٧ــ بلغت المرأة في التاريخ القديم حالة متقدمة لم تشهدها اليمنُ ولا غيرُها من المجتمعات في المنطقة في الوقت الحالي؛ كبلقيس الملكة، وغير بلقيس؛ حيث برزت الكاهنة «برأت» التي

تسـنّمت منصـبَ الكهانـة الدينيّـة «السّـادن/ القيّـم». وكان للأمـيرة «لميـس» دورٌ اجتماعـيٌّ آخـر، وغيرهـن مـن النسـاء. وبـروزُ النسـاء في أي مجتمـع دليـلٌ عـلى تقدمـه ورقيـه الحضـاري؛ لأنّ المجتمعـاتِ المتخلفـة تـزدري المـرأة وتحتقرهـا أيـا كان دينهـا أو ثقافتهـا.

والخلاصـة: إن شـعبًا كان يمتلـك العُمـلات النقديـة بكافـة وحداتهـا، والتقويـم التاريخـي بأنواعـه، والتجـارة والصناعـة، ومنظومـة القوانـين والتشريعـات السياسـية والاقتصاديـة والاجتماعية والدينيـة، والرفـاه الاجتماعـي، والفنـون الجميلـة بأشـكالها وأنواعهـا، ويحـترم المـرأة كـما يحـترم الرجـل، لهـو مـن التمـدن والحضـارة والرقـي بمـكان..! وبالتـالي فـلا جهـل ولا جاهليـة..!

* * *

المرأة في الحضارة اليمنية

يكاد يكون وضع المرأة في أي مجتمع محددا رئيسيا لطبيعة هذا المجتمع وحالته، باعتبار أن التعامل مع المرأة يعكس الوجه الحقيقي لأي أمة أو حضارة أو مجتمع، باعتبار المرأة شقيقة الرجال، ما أكرمها إلا كريم، ولا أهانها إلا لئيم. وباعتبار المجتمعات الذكورية المتأخرة كليا أو نسبيا في الوعي وفي التمدن تنتقص من قدر المرأة وقيمتها، كما تنتقص من حقوقها المشروعة؛ بل أحيانا من حقوقها الطبيعية، فتبدو المرأة أكثر ضعفا وأكثر تخلفا في المجتمع المتخلف والضعيف كما أشار البردوني إلى ذلك.

كانت المرأة عند الإغريق مخلوقا شريرا، وكانت محتقرة مهينة، باعتبارها ـ من وجهة نظرهم ـ رجسا من عمل الشيطان، وكانتْ كسقط المتاع تُباع وتشترَى في الأسواق، مسلوبة الحقوق، محرومة من حقِّ الميراث وحقِّ التصرُّف في المال، أو حق التجارة والتصويت الانتخابي، والعجيب أن هذا الاعتقاد السائد لم يكن مقتصرا على العامة والجهلة من الناس فقط؛ بل حتى على النخبة وعلى الفلاسفة، فعند اليونان مثلا، ومما ينسب للفيلسوف أرسطو عن المرأة: «إن الطبيعة لم تزودِ المرأةَ بأيِّ استعداد عقلي يُعتَد به؛ ولذلك يجب أن تقتصرَ تربيتُها على شؤون التدبير المنزلي والأُمومة والحَضانة وما إلى ذلك، ثم يقول: ثلاثة ليس لهم التصرُّف في أنفسهم: العبد ليس له إرادة، والطِّفل له إرادة ناقِصة، والمرأة

لها إرادة وهي عاجِزة». وقد قال: إن المرأة رجل غير كامل، وقد تركتها الطبيعة في الدرك الأسفل من سلم الخليقة. وهو القائل: إن المرأة للرجل كالعبد للسيّد، والعامل للعالم، والبربري لليوناني، وأن الرجل أعلى منزلة من المرأة.

وعند الرومان: اعتبرت المرأة متاعاً مملوكاً للرجل وسلعة من السلع الرخيصة يتصرف الرجال فيها كيف يشاؤون، وكان يعتبرها الرجال شراً لا بد من اجتنابه، وأنها مخلوقة للمتعة، وكانت دائماً خاضعة للرجل أبا كان أو زوجا، وكان الرجل يملك مالها؛ فهي ـ في نظره ونظر الرجال ونظر المجتمع كله ـ أمةٌ لا قيمة لها، وكان بيد أبيها وزوجها حق حياتها وحق موتها، وإذا كانت ملك أبيها في شبابها فهو الذي يختار لها زوجها، فإذا تزوجت ملكها زوجها، وفى ذلك يقول جايوس: توجب عادتنا على النساء الرشيدات أن يبقين تحت الوصاية لخفة عقولهن.!!

وعلى الرغم مما عرفت به روما من التشريعات القانونية القديمة إلا أنها أغفلت جانب المرأة تماما، وتركتها هملا لسطوة العادات والتقاليد التي تتناهشها بلا رحمة، إلى حد وضع قفل على فمها، منعا لها من الكلام، كونها أداة غواية، يستخدمها الشيطان في الاستحواذ على عقول الناس وقلوبهم؛ بل كانت إذا أساءت أو أخطأت ربطوها على ذيل حصان وسحبوها، ثم صبوا على جسدها الزيت الحار، ثم لا يسمحون لها بأن تلبس بعد ذلك إلا لونا واحدا من القماش لا ثاني له كعقاب أبدي على خطيئتها..!

الأعجب في الأمر أن حضارات الشرق الأدنى ـ وتحديدا الحضارة الفرعونية والحضارة اليمنية القديمة ـ هما اللتان كانتا تحترمان المرأة كإنسان مكرم لها ما للرجل وعليها ما عليه، وما عداهما من الحضارات فلم تكن إلا مسخا ليس له حق الحياة الطبيعية.

* * *

بلقيس ملكة اليمن

كانت المرأة في الحضارة اليمنية تعيش وضعها الطبيعي بما لها أو عليها، جنبا إلى جنب مع الرجل، دون انتقاص أو ازدراء، على العكس مما كان عليه الأمر لدى الإغريق من يونان ورومان، ليس ذلك فحسب؛ بل لقد تسنمت أرقى المناصب السيادية في البلد، كملكة متوجة تأمر وتنهى، إلى حد أن يقول لها قومها: (والأمر إليك فانظري ما ذا تأمرين)؟! وفي المجال الديني تسنمت المرأة مناصب دينية كبيرة، كما سنشير لاحقا، ناهيك عن الاشتغال بالعمل العام كالتجارة والزراعة وغير ذلك. وهي حالة تعكس رقيا مدنيا وحضاريا لدى العامة والخاصة؛ لأن مجرد وصول امرأة إلى سدة الحكم ليس بالأمر السهل؛ بل من المستحيل في المجتمعات التقليدية والبدائية، وتاريخيا لم تنل المرأة حقها كاملا إلا في المجتمعات التي بلغت درجة عالية من الرقي والتمدن فقط؛ ولأن قوم سبأ قد كانوا كذلك فقد وصلت بلقيس إلى ناصية الحكم، ملكة متوجة، تحكم قومها بالشورى الملئيّة.

حكمت بلقيس بنت إل شرح بن الهدهاد بن شرحبيل بن ذي سحر، في القرن العاشر قبل الميلاد، فيما بين ٩٤٦- ٩٢٤ق. م. لما يزيد عن اثنين وعشرين عاما. وقد قص الله حديثها مع نبيه سليمان بن داود في القرآن الكريم مشيرا إلى إسلامها معه لله رب العالمين. وتعتبر الترتيب السابع عشر من بين ملوك سبأ التبابعة

الذين ابتدؤوا بالرائش باران ذو رياش.

أما عن مجلسها وحكمها فقد روى الخليفة المهدي بن المنصور عن جده عبدالله بن عباس، قال: كان أولو مشورتها ألف قيل، تحت يد كل قيل ألف مقاتل. وقال قتادة: كانت بلقيس في بيت مملكة، وكانت بأرض يقال لها مارب من صنعاء على ثلاثة أيام، وكان أولو مشورتها ثلاثمئة واثني عشر قيلا، كل قيل منهم على عشرة آلاف رجل.. وقال مجاهد: كان مع بلقيس ملكة سبأ اثنا عشر ألف قيل، مع كل قيل مئة ألف مقاتل.

قال تعالى: (إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم (٢٣) وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون)

وفي الآيات التي سردتها القصة عن بلقيس مع قومها نستنتج الآتي:

١ـ إشارة إلى طبيعة الحكم الملكي: «تملكهم"

٢ـ الرخاء المادي والرفاه الاجتماعي: «وأوتيت من كل شيء"

٣ـ إشارة إلى الديانة الرسمية للشعب: «يسجدون للشمس"

٤ـ إشارة إلى طبيعة نظام الحكم الشوروي: «افتوني في أمري"

٥ـ إشارة إلى قوة الدولة: «نحن أولو قوة وأولو بأس شديد"

٦ـ إشارة إلى اللغة الديبلوماسية الذكية في التعامل «الملوكي» حين

سئلت بعد الرحلة: «أهكذا عرشك»؟ فردت: «كأنه هو»!! إذ لم تؤكد ولم تنف في نفس الوقت. وهي نفس اللغة التي كانت مع الهدهد: «غير بعيد»!! فلم يكن قريبا، ولم يكن بعيدا في نفس الوقت. وكأنه جمع بينهما..!

٧ـ إشارة إلى الهدية في الزيارات الرسمية والمراسيم الملوكية «مرسلة إليهم بهدية"

ونقف هنا عند قوله تعالى: (وأوتيت من كل شيء)

فإنها بمقابل قوله تعالى على لسان سليمان: (وورث سليمانُ داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء)!!

والواقع أن ما أوتيَه سليمان عليه السلام هو من الله عز وجل، استجابة لدعوته: (رب هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي)

أما ما أوتيتْه بلقيس الملكة السبئية بالكسب الحضاري لشعب سبأ، ولم يكن مُلكا أو نعيما عارضا من السماء بلا جهد أو نتاج دعوة.

من ناحية ثانية فإن دلالة السياق عامة، شاملة لكل ما يخطر على البال، «شيء».. وشيء: نكرة تامة تفيد العموم، ولا تُقيد بقيد، كما هو معروف عند أهل اللغة.

وقد فصلت التوراة طرفا من الرحلة، مشيرة إلى الهدايا

العظيمة التي صحبت بلقيس وموكبها، ففي سفر الملوك الأول:

٨- وَسَمِعَتْ مَلِكَةُ سَبَا بِخَبَرِ سُلَيْمَانَ لِمَجْدِ الرَّبِّ، فَأَتَتْ لِتَمْتَحِنَهُ بِمَسَائِلَ.

٩- فَأَتَتْ إِلَى أُورُشَلِيمَ بِمَوْكِبٍ عَظِيمٍ جِدًّا، بِجِمَالٍ حَامِلَةٍ أَطْيَابًا وَذَهَبًا كَثِيرًا جِدًّا وَحِجَارَةً كَرِيمَةً. وَأَتَتْ إِلَى سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَتْهُ بِكُلِّ مَا كَانَ بِقَلْبِهَا.

١٠- وَأَعْطَتِ الْمَلِكَ مِئَةً وَعِشْرِينَ وَزْنَةَ ذَهَبٍ وَأَطْيَابًا كَثِيرَةً جِدًّا وَحِجَارَةً كَرِيمَةً. لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِثْلُ ذلِكَ الطِّيبِ فِي الْكَثْرَةِ، الَّذِي أَعْطَتْهُ مَلِكَةُ سَبَا لِلْمَلِكِ سُلَيْمَانَ.

١١- وَكَذَا سُفُنُ حِيرَامَ الَّتِي حَمَلَتْ ذَهَبًا مِنْ أُوفِيرَ، أَتَتْ مِنْ أُوفِيرَ بِخَشَبِ الصَّنْدَلِ كَثِيرًا جِدًّا وَبِحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ.

١٢- فَعَمِلَ سُلَيْمَانُ خَشَبَ الصَّنْدَلِ دَرَابِزِينًا لِبَيْتِ الرَّبِّ وَبَيْتِ الْمَلِكِ، وَأَعْوَادًا وَرَبَابًا لِلْمُغَنِّينَ. لَمْ يَأْتِ وَلَمْ يُرَ مِثْلُ خَشَبِ الصَّنْدَلِ ذلِكَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ.

وفي الإنجيل من حديث عيسى عليه السلام لقومه: «هذا الجيل شرير.. إن ملكة التيمن ستقوم في يوم الدين مع رجال هذا الدين وتدينهم؛ لأنها أتت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان، وها هو ذا أعظم من سليمان ها هنا".

إن إجماع الكتب المقدسة الثلاثة على ذكر بلقيس والإشادة بها

دليل عظمتها، فلم تنلْ امرأة ما من نساء التاريخ في هذه الكتب ما نالته بلقيس اليمنية، لا في الشرق ولا في الغرب، على عظمة بعض الملكات في بعض الحضارات الأخرى.

* * *

برأت.. الكاهنة

لم تكن بلقيس الملكة إلا واحدة من بلقيسات كثر، ذكر المؤرخون بعضهن وتركوا البعض الآخر، وإنما طغت شهرة بلقيس الملكة، لملوكيتها، ولكثرة التغني بها، وقد وردت الإشارة إلى ملوكية وأميرية نساء سبأ المتوجات شعرا منسوبا إلى أحد التبابعة، يقول:

أولدتني من الملوك ملوك كل قيل متوج صنديد
ونساء متوجات كبلقيـ ـس وشمس أكرم بها من جدود!

وقال علقمة بن ذي جدن عن الأميرة السبئية لميس:

ولميس كانت في ذؤابة ناعط يجبي إليها الخراج ساكن بربر
الصامخ الملك المملك بعلها ذو التاج حين بلوتَه والمحضر

ومن هذه النساء التي اشتهرن في اليمن «برأت» الكاهنة.

* * *

أسماء بنت شهاب الصليحي

برزت في الفترة الإسلامية بعض النساء اللاتي خلد ذكرهن التاريخ، وقد لعبن أدورا بطولية رائدة رغم العوائق والمثبطات والقيود التي لاقتها المرأة ولا تزال.

كانت أسماء بنت شهاب الصليحي ذات جمال وجاه، كما كانت أديبة وشاعرة فصيحة وكريمة اليد، ففتن بها ابن عمها الأمير علي بن محمد الصليحي وطلبها لنفسه، ثم تزوجها بعد لأيٍ ومشقة، وكانت بعد ذلك بمثابة المستشار الأول أو الوزير الأول لزوجها علي بن محمد الصليحي، حاكم اليمن، ويقال إن خطباء الجوامع كانوا يدعون لها في خطب الجمعة جنبا إلى جنب مع زوجها الملك، وذلك لشهرتها ولكرمها الذي عرفت به، وقد كانت نهايتها مع زوجها بائسة على يد النجاحيين في زبيد الذين كمنوا لزوجها في رحلته للحج، فقتلوه، وسبوها، وظلت في الأسر في زبيد حتى جاء ولدها المكرم وأنقذها، وطرد الأحباش من زبيد.

* * *

أروى بنت أحمد الصليحي

لم يقتصر تكريم المرأة اليمنية على الحضارة القديمة قبل الإسلام فحسب؛ بل كانت الروح متقدة والوهج مستمرا كامنا في الوجدان على الرغم من التراجع الحضاري والانحدار المجتمعي الذي كان قد شهده اليمن منذ فترة ما قبل الإسلام؛ لذا واصلت المرأة اليمنية دورها الريادي في مختلف المجالات، بما في ذلك السياسة، فكانت أروى بنت أحمد الصليحي ملكة اليمن في القرن الخامس الهجري، كما كانت جدتها بلقيس كذلك قبل حوالي ألفي عام. وهي نفسها المسماة سيدة في بعض الروايات. وكما كانت بلقيس موضع تقدير قومها، وشهد عصرها رخاء كبيرا، كذلك كان الشأن مع الملكة أروى بنت أحمد الصليحي التي كانت موضع تقدير واحترام قومها، وشهد عهدها من الرخاء الاقتصادي، والازدهار السياسي ما لم تشهده العصور اللاحقة بعد ذلك عدا فترة حكم الدولة الرسولية فقط، أما ما عداه فدون ذلك العهد بكثير.

وتروي المصادر التاريخية أن اشتغال الملكة أروى بنت أحمد الصليحي بالسياسة وتدبير الحكم كان منذ عهد حميها علي الصليحي، إذ كانت أشبه ما تكون بالمستشارة، ولما مات الملك علي الصليحي وورث العرش عنه المكرم الصليحي كانت أيضا كذلك، بل لقد زادت خبرتها فزاد حضورها السياسي في تدبير

شؤون المملكة وتصريف الحكم إلى حد عزوفها عن الحياة البيتية والعائلية، ولما عاتبها زوجها على ذلك، أجابت: إن المرأة التي تصلح للحكم لا تصلح للفراش.

إن فترة حكم الملكة أروى من أزهى فترات التاريخ اليمني، ولا تزال الذاكرة الشعبية، ناهيك عن كتب المؤرخين تحكي قصصا ومرويات خيالية، تأسطرت بعضها حتى اختلطت الحقيقة بالخيال، ذلك لأنها كانت على قدر كبير من العلم والفقه والتأدب، مضافا إليه الخبرة السياسية والبيتية الملوكية التي نشأت فيها.

وقد توفيت سنة ٥٣٢هـ بعد حياة حافلة بالعطاء والإنجاز والرخاء. ولا تزال في عمق الذاكرة الشعبية اليمنية إلى اليوم فنارا مضيئا، جنبا إلى جنب مع الملكة بلقيس، ذات التاريخ الخالد.

* * *

الوطن في القرآن الكريم

تتحددُ أهمية الوطن في البعد الديني من أهمية الغاية التي «جُعِلَ» من أجلها الإنسانُ نفسُه في هذه الأرض. وهي أهمية قُدسية كرم الله بها هذا الإنسانَ وشرفه منذ البداية الأولى لوجوده على هذه البسيطة، وإلى هذه الغاية النبيلة أشارت جميع الشرائع السماوية على نحو تستشرف فيه كوامن العظمة المندفنة فيه.

في القرآن الكريم ذُكرت كلمة «مَوَاطِن» في قوله تعالى: (ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة) وتعني «أماكن»، وفقا لمدلول السياق؛ لكننا نجدها بمعناها في بعض الأحكام أو الإشارات القرآنية التي نستشف من خلالها قيمة المكان في الحياة الإنسانية العامة، وهي قيمة مادية ومعنوية معا، يجب التعامل معها بإيجابية، كما يجب أن يسود التفاعل الخلاق بين الإنسان من جهة وبين محيطه بكل مكوناته من جهة ثانية، وأن يكون الخُلق القويم هو أساس التعامل بوحي من الضمير الإنساني الخالص، بعيدا عن النزوات اللاأخلاقية التي يتعدى ضررها بصورة مباشرة وغير مباشرة على الآخرين، ولأجل ذلك قرر الله في كتابه الكريم تلك العقوبات الصارمة التي لا هوادة فيها تجاه من أساؤوا في حق أوطانهم وتعدوا على أمنها واستقرارها فقال: (إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ

خِـزْيٌ فِي الدُّنْيَـا وَلَهُـمْ فِي الآخِـرَةِ عَـذَابٌ عَظِيـمٌ).

ونلاحـظ العقوبـة الأخـيرة في سلسـلة الخيـارات التـي ذكرهـا الشـارع الحكيـم هنـا بحـق مـن يحاربـون الله ورسـوله ويسـعون في الأرض فسـادا، وهـي قولـه: (أو يُنفَـوا مـن الأرض) وكيـف اقترنـت بـما قبلهـا مـن العقوبـات، وهـي عقوبـات صارمـة لا هـوادة فيهـا، (القتـل، الصلـب، تقطيـع الأيـدي والأرجـل) ليـأتي النفـي مـن الأرض معطوفـا بحـرف الـواو الـذي تـشي دلالتـه إلى التسـاوي التـام، خلافـا لبقيـة حـروف العطـف الأخـرى التـي تعنـي التراتبيـة أو التراخـي في المعنـى، كـما هـو معـروف عنـد البلاغيـين.

ولـذا حـين أشـار الله في حديثـه عـن بنـي إسرائيـل إلى تمردهـم عـن نواهيـه وأوامـره قَـرَن قتـل النفـس بالخـروج مـن الديـار، فقـال: (وَلَـوْ أَنَّـا كَتَبْنَـا عَلَيْهِـمْ أَنِ اقْتُلُـواْ أَنفُسَـكُمْ أَوِ اخْرُجُـواْ مِـن دِيَارِكُـم مَّـا فَعَلُـوهُ إِلاَّ قَلِيـلٌ مِنْهُـمْ..).

وأيضـا حـين خاطبهـم: (وَإِذْ أَخَذْنَـا مِيثَاقَكُـمْ لاَ تَسْـفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُـونَ أَنفُسَـكُم مِّـن دِيَارِكُـمْ ثُـمَّ أَقْرَرْتُـمْ وَأَنتُمْ تَشْـهَدُونَ).

بـل إن مـن أسـباب القتـال في سـبيل الله كـما يقـرر السـياق القـرآني في إطـار الحديـث عـن بنـي إسرائيـل كمـبرر ومسـوغ ودافـع لـه هـو إخراجهـم مـن ديارهـم (أَلَمْ تَـرَ إِلَى الْمَلإِ مِـن بَنِـي إِسْرَائِيـلَ مِـن بَعْـدِ مُوسَـى إِذْ قَالُـواْ لِنَبِـيٍّ لَّهُـمُ ابْعَـثْ لَنَـا مَلِـكاً نُّقَاتِـلْ فِي سَـبِيلِ اللّهِ قَـالَ هَـلْ عَسَـيْتُمْ إِن كُتِـبَ عَلَيْكُـمُ الْقِتَـالُ أَلاَّ تُقَاتِلُـواْ قَالُـواْ وَمَـا لَنَـا أَلاَّ نُقَاتِـلَ فِي سَـبِيلِ اللّهِ وَقَـدْ أُخْرِجْنَـا مِـن دِيَارِنَـا وَأَبْنَآئِنَـا فَلَـمَّا كُتِـبَ

عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ).

وهنا يتداخل الدفاع بين الذات الإنسانية وبين الوطن، باعتبار الذات جزءا من الوطن، والوطن هو الكل البشري ككل، به تتحقق مصالح الأمة وفيه يربو معاشُها، وإذا كان الإخراج من الأوطان بمثابة القتل، فبمفهوم المخالفة: إن البقاءَ في الديار نظير الحياة.

ومفهوم الأرض هنا حسب القراءة المعاصرة لا يتعدى مفهوم الوطن في المفهوم والدلالة، كما أن الفساد ـ وهو مفهوم نسبي ـ تختلف طبيعته ومحدداته باختلاف الزمان والمكان تقدره الدولة وفق معادل موضوعي بقدر ما يُسقط الشرَّ فإنه يُقيم الخيرَ أيضا في صورة واحدة ومتكاملة، وهذه فلسفة التشريع والتقنين.

فَقطعُ الطريق وسلبُ الحقوق فساد. والاستحواذُ على مقدرات الأمة وحقوقها ــ بأي صورة من الصور ــ فساد. والإخلالُ بأمن المجتمع ــ وأعني بالأمن هنا الأمن الشامل الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي ــ هو أيضا فساد. وعلى الدولة أن تقف له بالمرصاد؛ بل إن من الأهمية أن تعمل الدولة ابتداء على الحد من تغوله، وانتشاره وأن تجتثه من جذوره قبل أن يتعملقَ ويصبح عصيا على العلاج، وذلك من خلال ما يُعرفُ بالأمن الوقائي، ولكن بشروطه التي لا تجعل منه ذريعة للتعدي ومحاكمة للنوايا..

ومن المعروف في فلسفة العقوبة والجزاء أن العقوبةَ لا تكون

إلا بقدر الجرم الذي ارتكبه صاحبه، ولما كان الظلم والتعدي في حق الآخر ـ أي ـ كان فإن عقوبته جاءت بنفس المستوى وهو الحرمان من أعزِّ ما يكون على النفس وهو التفريق بين المجرم وبين الوطن؛ لأن رسالة الأوطان تقتضي مواطنا صالحًا وإيجابيًا. مواطنا لا تتحكم فيه شهواتُه ونزواته الحقيرة التي تُلحق الضرر بالآخرين، والذي يُحد من طبيعة الدور المنوط بهذا الإنسان في أرضه وهو الاستخلاف. فلا شيءَ يدمرُ الأوطان كالفساد، والفساد معنًى عام هنا وشامل، لا يقتصر على نمط معين أو جزئية محددة في الحياة، فهناك فساد الحكام والولاة، وهناك فساد الرعية والمواطنين، وهناك فساد المال، وهناك فساد الإدارة؛ ولهذا كان ذو القرنين على مستوى المسئولية التي أنيطت به وتحمّلها إزاء شعبه، وقد جاوز ملكه مطلع الشمس ومغربها، حين أخبره الناس بفساد يأجوج ومأجوج، فلم يقف حائرا أو مكتوف الأيدي، أو محتقرا شأنهم قياسا إلى ملكه العظيم؛ بل سرعان ما دعا قومه: (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً).

وهنا تتبدى المسئولية المشتركة بين القائد ومواطنيه، من خلال التعاون والتعاضد بين الاثنين فتتحقق النتيجة المرجوة في الإصلاح والبناء وقد خاطبهم: (فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً).

مؤكدا في بداية موقفه الصارم على موقفه الثابت تجاه أي

«ظالم» تسول له نفسه تجاوز الحد المرسوم له والتعدي على حقوق الآخرين: (قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً).

من جانب آخر حين ذكر القرآن الكريم ـ في مواضع عدة ـ عاقبة الظلم والظالمين، فإن ذلك ليس من قبيل السرد القصصي، أو الإشارات العابرة للحدث، بقدر ما هو دعوة للتأمل والتدبر في مآلات ومصائر الفساد والفاسدين. والظلم ـ كصورة من صور الفساد ـ مؤذِنٌ بخراب العمران، كما يذهب إلى ذلك المؤرخ والفيلسوف الشهير ابن خلدون. (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ).

وقد ذُكر الظلمُ في القرآن الكريم مرات عديدة، مرتبطا بمآلاته ومصائره ارتباطا مباشرا، لا يكاد ينفك عنه، على نحو يلفتنا الله إليه، تجنبًا لتكراره أو الوقوع فيه، والتفاتا إلى أهمية الأوطان بما يصلحها ويشيد حضارتها. وبوجه عام فقد ارتبطت كلُّ الحضاراتِ الإنسانية عبر التاريخ بقيم العدالة والحرية، وكذا باحترام الشعوب لأوطانها، من خلال البناء والتعمير وتحمل مسئولية الاستخلاف في الأرض.

على صعيدٍ آخر.. حين أشارَ القرآنُ الكريم في معرض حديثه عن المهاجرين من أهل مكة، واصفا إياهم بأنهم أعظم درجة عند الله، وأنهم الفائزون، فإن ذلك ـ في الواقع ـ تعويضٌ كبيرٌ بحجم المُعوّض عنه، وهو الوطن، قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُواْ

وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ).

وكذَا قوله تعالى: (لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ).

* * *

الوطن في ضمير الشعراء

منذ القدم والوطنُ ملهمٌ رئيس لكثير من الشعراء الذين تغنوا به ونظموا فيه العديد من الأشعار، وإن كان معنى «الموطن» بمفهومه البدائي هو السائد في وعيهم آنذاك على مفهوم «الوطن» بمفهومه المعاصر، كما نجد في أغلب قصائد الشعر العربي في عصوره الأولى.

الوطن قضية.. من وحي مرابعه كان ذلك الحنينُ المتدفق في نتاجات الشعراء وإبداعاتهم نظما ونثرًا حين ألقت بهم الأسفارُ خارج حدوده، وقد شكل جزءًا من هويتهم وتكوينهم النفسي، فتفجرت صورًا بديعة نابضة بالحنين إليه بعد معاناة نفسية من ألم الغربة والفراق.

في الشعر الجاهلي من أدبنا العربي تتجلى فلسفة المكان في أوضح صورها وأجلى معانيها، قضية ومعنى لا تكاد تفارق أي نص من النصوص إلا فيما ندر، فلطالما احتل المكان «الموطن» حيزًا واسعًا في القصيدة الجاهلية على اختلاف موضوع القصيدة وغرضها الفني، وسواء ارتبطت بالمحبوب في غالبها أم لم ترتبط، فالطابع العام لفلسفة هذا الاتجاه التقليدي السائد تؤكد مدى الحضور العميق في وجدان العربي وأحاسيسه للوطن/ الموطن الذي شكل شخصيته وطبعها بطابعه. ولذا فقد قال أحد الحكماء: إذا أردت معرفة أحد فانظر إلى وفائه لأوطانه، وحنينه

إلى إخوانه. كما قالت العرب قديما: من علامات الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقة، وإلى مسقط رأسها مشتاقة. وقد قيل لأعرابي: أتشتاق إلى وطنك؟ فقال: كيف لا أشتاق إلى رملة كنت جنين ركامها ورضيع غمامها؟! ومما يروى عن الأوطان أيضا: الإبل تحن إلى معاطنها وإن كان عهدها بعيدا، والطير إلى وكره وإن كان موضعه مجدبا، والإنسان إلى وطنه وإن كان غيره أكثر نفعا له.

يقول الجاحظ: «إن السبب الذي بعث على جمع نُتف من أخبار العرب في حنينها إلى أوطانها، وشوقها إلى تُرْبها وبلدانها، ووصفها في أشعارها توقُّد النار في أكبادها، أني فاوضتُ بعض من انتقل من الملوك في ذكر الديار والنزاع إلى الأوطان، فسمعته يذكر أنه اغترب من بلده إلى آخر أمهد من وطنه، وأعمر من مكانه، وأخصب من جنابه، ولم يزل عظيم الشأن، جليل السلطان، تدين له من عشائر العرب ساداتها وفتيانها، ومن شعوب العجم أنجادُها وشجعانُها، يقود الجيوش، ويسوس الحروب، وليس ببابه إلا راغب إليه، أو راهب منه، فكان إذا ذكر التربة والوطن حنَّ إليه».

مُضيفا: "قالت الحكماء: الحنين من رقة القلب، ورقة القلب من الرعاية، والرعاية من الرحمة، والرحمة من كرم الفطرة، وكرم الفطرة من طهارة الرشد، وطهارة الرشد من كرم المحْتَد. ويقولون أيضا: فطرةُ الرجل معجونة بحب الوطن. وقال آخر: عسرك في دارك أعز لك من يُسرك في غربتك.

في الشعر الجاهلي وتحديدا المعلقات السبع أو العشر على خلاف بين النقاد، لا نكاد نجد واحدة منها تركت المكان أو الموطن وتجاوزته مهما كان غرض القصيدة وموضوعها الفني اللَّذين تعددا بتعدد المعلقات نفسها؛ بل لقد استهل الشعراء قصائدَهم به وإن ارتبط كما أسلفنا سابقا بمتعلق آخر في وجدان الشاعر إلا أن المشهد في صورته الإجمالية لهذا الفن يقرر تلك العلاقة الوجدانية المتجذرة بين المكان وصاحبه، جعلته يذرف الدموع ويبكي حين وقف على أطلاله ذات خطرة عابرة ويستدعي من أقاصي الذكريات تلك الأطياف التي تتخاطر بين ناظريه، فيستعذب ويستحلي مُرَّها وشقاءها، ناهيك عن حلوها وسعادتها.

يقول امرؤ القيس صاحب أقدم المعلقات مستفتحا إياها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

فسقط اللوى، حومل، توضحْ، المقراة، هي أسماء لأماكن تختزلها ذاكرة الشاعر بما تحمل من ملامح وصور فرضت حضورها المباشر على مطلع المعلقة بصورة تلقائية، ليصل بعد ذلك إلى تصوير حالته وقد فاضت دموع العين صبابة:

كأني غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحي ناقف حنظل

ونفس الأمر لدى الشاعر الفيلسوف طرفة بن العبد البكري حين استهل معلقته بالمكان، كتقليد أصيل في القصيدة العربية القديمة ولازمة فنية ونفسية في آن معا:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وأيضا لدى زهير بن أبي سلمى شاعر العقل والحكمة والتي اشتهرت قصائده بالحوليات: يقف على أطلال موطن باد واندثر فيستهل معلقته بالقول:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم

إلى أن يقول في البيت الخامس:

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم

وأيضا عنترة بن شداد العبسي:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحا دار عبلة واسلمي

فوقفت فيها ناقتي وكأنها فدن لأقضي حاجة المتلوم

وكذا النابغة الذبياني

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

وقفت فيها أصيلالا أسائلها عيَّت جوابا وما بالربع من أحد

وأيضا الحارث بن حلزة اليشكري:

لِمَنِ الدِيارُ عَفونَ بِالحَبَـــــسِ آياتُها كَمَهـــــارِقِ الفُـــرسِ
لا شَيءَ فيها غَيرُ أَصـــــــورَةٍ سُفعِ الخُدودِ يَلُحنَ في الشَمسِ
وَغَيرُ آثارِ الجِيادِ بِأَعـــــراضِ الخِيامِ وَآيَـــــــةِ الدَعـــسِ
فَحَبَستُ فيها الرَكبَ أَحدُس فيُ جُلِّ الأُمورِ وَكُنتُ ذا حَـــدسِ

وهكذا في كثير من القصائد الأخرى التي حافظت على النهج حتى مرحلة متأخرة من العصر الإسلامي، وهو العصر الثاني من عصور الأدب العربي.

إن هذه البكائيات في مطالع القصائد العربية القديمة، والتي اقترنت بذكر المكان ـ وهي كثيرة ـ تؤكدُ في عمقها البعيد تلك العلاقة النفسية بالمكان «الوطن» وتشير أيضا إلى تلك المعاناة الطويلة التي عاشها إنسان الأمس والمتمثلة في الحرمان من الاستقرار الدائم في موطن واحد، وقد أجبرته ظروف المعيشة البدائية على التنقل بحثا عن الماء والكلأ، فكان الحنين الدائم إلى تلك المَواطن بكل ما تحمل من الذكريات التي تسيطر على ذهنية صاحبه، وهي لحظات حزن يجرجرها من أقاصي الذكريات وقد حرم من الاستقرار والسكون، وعاش آلام الغربة والاغتراب، كما أنها ـ من وجه آخر ـ تطلعٌ منه أن يستقر به المقام بين الأهل والأحبة والعشيرة.

في الصورة الكلية لفلسفة المشهد الفني في المقدمة الطللية للقصيدة العربية قديما بكاء يفيض بالحنين، أو حنين يفيض بالبكاء، جسده عربي الأمس، تعكس هذه الصورة فيما تعكس

مقدار الوفاء الذي عرف به العربي تجاه وطنه الأول؛ حيث مرابع الصبا وعرصات النشأة، حيث ذكريات الطفولة بأشواقها وأشواكها.. بلحظاتها الدافئة واللافحة على حد سواء! وقد كان أبو تمام فيما بعد أصدق من عبر عن هذا الارتباط العميق باستقراء التجربة وتقريرها:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه دوما لأول منزل

ولما ذهب إلى تقرير هذه المسلمة النفسية فقد التفت إلى عاذله، ملتمسا منه ألا يلومه وقد رأى منه تلك النزعة «الشوفينية» المفرطة تجاه وطنه:

لا تكثرن ملامي أن عكفت على
ربع الحبيب فلم أعكف على وثن
فما وجدت على الأحشاء أوقد من
دمع على وطن لي في سوى وطني
صيرت لي من تباري عَبرتي سكنا
مذ صرت فردا بلا إِلف ولا سكن

وقبله، وعلى الرغم من تشابه بيئتي مكة والمدينة وقربهما أيضا إلا أن للأولى ذكرى وذكريات أنعشتها لواعج الأشواق، وبعثتها ارتعاشة الحمى التي أصابت الصحابي الجليل بلال بن

رباح فتسرى إليها الحنين دفاقا، وكأنما هزت بارتعاشها ذكريات الماضي هناك في مكة، فأنشأ على الفور:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بوادٍ وحولي إذْخرٌ وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

وهذه زوج معاوية بن أبي سفيان، ميسون بنت بحدل الكلبية تحنُّ إلى ربْعها وموطنها الأول على تواضع المعيشة فيه، وعلى الرغم من رغد العيش وفخامة المكان الجديد، وكأن حياة البادية ـ موطنها الأول ـ أحب إليها من حياة القصور الباذخة، فتقول:

ولبس عباءة وتقر عيني أحب إلى من لبس الشفوف
وبيت تخفق الأرواح فيه أحب إلى من قصر منيف
وكلب ينبح الطراق دوني أحب إلي من قط أليف

وليس أشجى ولا أمر ولا أقسى عند الشعراء من وحشة الغربة وبعد الديار وفراق الخلان!! ولهذا تجد كثيرا من دواوين الشعر العربي زاخرة بقصائد الحنين والشكوى والألم من فراق الأهل والأوطان كما سنرى..

فهذا ابن الرومي يعلل ذلك بصورة أوضح في مقطوعة أخرى حين تحرك شوقه إلى بغداد، وقد طال مقامه بسرى من رأى:

ولي وطن آليت ألا أبيعه وألا أرى غيري له الدهر مالكا
فقد ألفته النفس حتى كأنه لها جسد إن بان غودرت هالكا

وحَبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الرجال هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنُّوا لذلكا

وقد علق أحد النقاد على هذه الأبيات بقوله: لو انتزعت هذه الأبيات من ديوان ابن الرومي لفقد كثيرا من بهائه ورونقه..

ولفيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة أبي العلاء المعري دلوه في هذا المضمار رغم غلبة النزعة التشاؤمية على طبعه أن قال:

وماء بلادي كان أنجع مشربـــا
ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال
فيا وطني إن فاتني بك سابـــق
من الدهر فلينعم لساكنك البـال
وإن أستطع في الحشر آتك زائـرا
وهيهات لي يوم القيامة أشغـــال

وهذا الفقيه المحدث ابن حجر العسقلاني، شارح الجامع الصحيح في الحديث النبوي الشريف يصف حاله في ديار الغربة وقد جاوز بلده بلغة الفقيه:

ناءٍ عن الأهل والأوطان مغترب وواحد ما له في الصبر موجود
متيم قد بكى بعد الدموع دما كأنما هو في عينيه مفصـــود
النار ذات وقود في جوانحي شوقا وفي خده للدمع أخدود!

وفي ملكوت الوطن يسبَحُ أمير الشعراء أحمد شوقي حين تم نفيه إلى اسبانيا إبّان حكم الخديوي، وعلى الرغم من جمالية المكان وفارق العمران بين البلدين إلا أن الوطن يظل في نفس صاحبه أغلى وأسمى، هناك في اسبانيا جادت قريحته بأبدع القصائد التي طارت شهرتها عن الوطن؛ ومنها:

وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي
وهفا بالفؤاد في سلسبيل ... ظمأ للسواد من «عين شمس»
شهد الله لم يغب عن جفوني ... شخصه ساعة ولم يخل حسي

مقررا:

وللأوطان في دم كل حر ... يد سلفت ودين مستحق
وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مضرجة يدق

أما حين عاد إلى أرض الوطن واشتم لأول مرة هبات نسيمه ونفحات هوائه أنشأ على الفور:

ويا وطني لقيتك بعد يأس ... كأني قد لقيت بك الشبابا
وكل مسافر سيؤوب يوما ... إذا رُزق السلامة والإيابا
ولو أني دعيت لكنتَ ديني ... عليه أقابل الحتم المجابا
أدير إليك قبل البيت وجهي ... إذا فهت الشهادة والمتابا
وقد سبقت ركائبي القوافي ... مقلدة أزمتها طرابا

تجوب الدهر نحوك والفيافي وتقتحم الليالي لا العبابا

مختتما خلاصة رؤيته مع هذه التجربة القاسية:

بلادي وان جارت علي عزيزة وأهلي وإن ضَنُّوا علي كرام

ونفس الأمر أيضا مع الشاعر السوري خير الدين الزركلي الذي كواه البعد وأضناه الفراق فحن لوطنه معبرا عن شعوره الفياض بالأنين والحنين:

العين بعد فراقها الوطنا لا ساكنا ألفت ولا سكنا
ريانة بالدمع أقلقها أن لا تحس كرى ولا وسنا
كانت ترى في كل سانحة حسنا وباتت لا ترى حسنا
والقلب لولا أنة صعدت أنكرتُه وشككتُ فيه أنا
ليت الذين أحبهم علموا وهم هنالك ما لقيت هنا
ما كنت أحسبني مفارقهم حتى تفارق روحي البدنا

ولمكانة الوطن في النفس ومنزلته منها فقد رأى الشاعر أحمد محرم أن الموت الزؤام خيار مقدم على ضياع الأوطان:

هي الأوطان إن ضاعت رضينا من الآمال بالموت الزؤام
لنعم القوم ما أوفوا بعهدٍ لأوطانٍ شقين ولا ذمام
ولا اعتصموا بحبل الجد يوماً ولا لاذوا بأكناف الوئام
فوا أسفي على وطن كريم غدا ما بيننا غرض السهام
ونحن على توجعه سكوتٌ كأنا بعض سكان الرجام

ولم يكن حافظ إبراهيم شاعر النيل بعيدا عن هؤلاء، فلطالما عاش نبع آلامه وآماله المتدفقة داعيا قومه:

رجال الغد المأمول إن بلادكـــم
تناشـــــدكم بالله أن تتذكـــروا
عليكم حقوق للبـــلاد أجلُّهـــا
تعهد روض العلم فالروض مقفر
قصارى مُنى أوطانكم أن ترى لكم
يداً تبتـني مجـــداً ورأســـاً يفـكر
فكونوا رجالاً عاملين أعـــــــزةً
وصونوا حمى أوطانكم وتحـــرروا

وقريب منه الشاعر مصطفى صادق الرافعي حيث قال:

بلادي هواها في لســـاني وفي دمي
يمجدها قلبي ويدعو لها فمـي
ولا خير فيمن لا يحب بـــــلاده
ولا في حليف الحب إن لم يتيـــم

وفيما عرف بأدب المهجريين خلال النصف الأول من القرن الماضي وبعده بقليل صدحت من بلاد المهجر ـ ومعظمها من أمريكا الشمالية ـ أصوات الشعراء والأدباء نظما ونثرا تتغنى بأمجاد أوطانها وتحن لتربتها الزاكية، مثل جبران خليل جبران وميخائيل

نعيمة وإيلياء أبي ماضي وفوزي المعلوف وجورج صيدح وغيرهم الكثير، فهذا جورج صيدح يقول:

وطني طيفك ضيفي في الكرى كلما أطبقت جفنيّ رقد
يتجنى..فإذا ملت إلى ضمه أعرض عني وابتعد
أترى طيف بلادي مثلها كلما رق له القلب استبد

وله أيضا:

فعلّموا كل حي عند مولده عليك لله والأوطان دينان
حتمٌ قضاؤهما حتمٌ جزاؤهما فاربأ بنفسك أن تمُنى بخسران

ويقول الشاعر محمد مهدي الجواهري، مستذكرا وطنه وهو في خارج العراق:

وما سرني في البعد حال تحسنت
بلادي أشهى لي وإن ساءت الحال
فمن شاقه برد النعيم بفارس
فإني إلى حر العراقين ميال
أحب حصاها وهو جمر مؤجج
وأهوى ثراها وهو شوك وأدغال

ولم يكن الشاعر معروف الرصافي بعيدا عن صاحبه حين صدح بحب الوطن قائلا:

ولي وطن أفنيت عمري بحبـــــه
وشتت شمـلي في هواه مبـــددا
ولم أر لي شيئا عليه وإنمـــــــا
علي لـه في الحب أن أتشـــــددا
تعلقته منذ الصبا مغرما كمـــــا
تعلق ليلى العامـري معمـــــــدا
وسيرت فيه الشعر فخرا فطالمـا
شدوت به في محفل القوم منشـدا
وكم رام إسكاتي أناس أبى لـهم
خنا الطبع إلا أن يروا لي حسـدا
ومن عجب أن يعشـق الـروض
بلبل ويمنعه ذبانه أن يغـــــردا

ويستذكر الشاعر الزبيري وطنه وهو في منفاه بعد فشل ثورة الدستور، فيقول:

وطني أنت نفـحة الله ما تبـــــ
رح لا عن قلبي ولا عن لســاني
صنـع الله منك طينـة قلبـــي
وبرى من شذاك روح بيـــاني

هاك ما قد طهرته لك في دمعـــي
وما قد صهرته في جنـــانـــــي
شعلة القلب لـو أذيعـت لقـالوا
مرَّ عبر الأثير نصـــــل يمانـــي

وللشاعر عبد الله البردوني أيضا تميزه المتفرد هنا بقوله:

يا أمي اليمن الخضـراء وفاتنتـــــي
منك الفتون ومني العشق والسـهر
ها أنت في كل ذراتي ومـــلء دمي
شعر تعنقـده الذكـرى وتعتـــصر
وأنت في حضن هذا الشعر فاتنـــة
تطل منه وحينـا فيـــــه تستـتر
وحسب شاعرها منها إذا احتجبت
عن اللقـا أنه يهـــــوى ويدكـــر

أما الشاعر عبدالله عبدالوهاب نعمان، فيقول:

يا شمالا يحمـل الهـــم بنا مطرقا يصغي إلى هم الجنوب
وحدة الشطرين في أعماقنا نغـــم تعزفه نبض القلوب
فهي الـذروة في أشـــواقنا إنهـا لقيـا حبيـــــب بحبيب
وهي إيمـاء إلى أشـــواقنا لن نلاقي بعدها وجه غـروب

ولشاعر الوطن والغربة، الشاعر الذي طالما أرهفت له الأسماع وترنمت به الأسجاع الشاعر حسين أبو بكر المحضار ـ رحمه الله ـ وطنيات خالدة تجسدت أثيريات بديعة في كثير من مغناة الفنانين، ومنهم الفنان الكبير أبو بكر سالم بلفقيه وغيره من الفنانين، وقد أصبحت كثير من مقاطعها على لسان كل مغترب يمني، الوطن هو الملجأ الأول والأخير، وإليه يعود ابنه مهما طال به الزمن أو نأى به البعد أو كانت المكاسب..

قل مرحبا للوطن لا قد دعاك الوطن في حلها ما تعزك غير أوطانك

يا المغترب وسط إبطك حُط ميزانك
لا حد يغرك يصور لك ورامك سمن
لا الدار دارك ولا السيمان سيهانك
يا المغترب وسط إبطك حط ميزانك
من قال وجهتك لا وين؟ قل لليمن
قوّ بحب الوطن دينك وإيمانك
يا المغترب وسط إبطك حط ميزانك

ولأنها كذلك فقد وهبها روحه، متغنيا بأمجادها العظيمة، وجمالها الساحر، مشيرا إلى صور من وفائه وحبه لها..

أرضي أعطيتها من روحي ولا زلت أعطيها
أرضي الله رفعها من ذا يقدر يوطيها

بالخضيــــــرة وبالمـــاء زين جبلــها وشاطيــها

ما تشوف المضامي

يا حداة المطايا بالله مروا على صنعاء بلغوها سلامي

ويقـول الشـاعر والأديـب اليمنـي الكبـير الدكتـور عبـد العزيـز المقالـح في الوطـن العزيـز عـلى قلبـه كـما هـو عزيـز عـلى قلـب كل يمنـي وعـربي غيـور:

وطـن النهـار ومعبـد الزمـن أنـــا عائـــدٌ لأراك يا وطني

" صنعاء « تدعوني مواسمهـا وعواصف الأشواق تعصرني

أنا أنتَ في حزني وفي فرحـي أنا أنت في صحوي وفي وسني

حاولت أن أنساك فانطفـأت طرق الهوى في سائر المـدنِ

وعلى ثراك الروح هائمـــةٌ لا تخشَ:ليس هنا سوى البدنِ

حملتك أشجاراً وأضرحـــةَ عيني فلم تهجع ولم تهـــنِ

ورحلتَ في الأجفـان ساهرةً هل أنت في الأحلام تذكرني ؟

أبحرتُ في دمعي ما قــدرت أمواجـه وغـرقتُ في شجـني

وركبتُ موج البحر فاحترقت خيلي وفـي أعقـابها سفـــني

وبعثتُ أشعـاري لتغسلهـــا من حزنهـا الدامي فتغسلـني

ووقفتُ تحت الليـل منطرحـاً أدعوك مذبوحًا.. أتسمعنـي ؟

عيناي في عينيك سُمّـــرتا تتساءلان متـى سترجعـــني؟

ومتـى أُقّبـل تربـة نزحـــت وأخيط من أشجارها كفني ؟

عادت طيور الأرض صادحة فمتى يعود الطائر اليمني ؟

وفي ملحمته التاريخية الرائعة، يقول القيل اليماني الكبير مطهر الإرياني:

أيا وطني جعلت هواك دينا وعشت على شعائره أمينا
إليك أزف من شعري صلاة ترتل في خشوع القانتينا
وفي الإيمان بالأوطان بر وتقديس لرب العالمينا

ولمكانة الوطن في نفسه ووجدانه قال ابن عدن، الشاعر لطفي جعفر أمان عقب الاستقلال:

على أرضنا بعد طول الكفاح
تجلى الصباح لأول مرة
وطار الفضاء طليقا رحيبا
بأجنحة النور ينساب ثرة
وقبلت الشمسُ سُمرَ الجباه
وقد عقدوا النصر من بعد ثورة
تحرر شعبي.. ففي كل بيت
ترِفُّ نجومٌ ويُورقُ بدر
وفوق شواطئنا الراقصات
مع النور فاض من الخلد فجر

وفي وحدة اليمن وما تمثله من خير وفير للبلاد على امتداد

ربوعه المترامية التي أشار إليها في قصيدته، قال الشاعر الدكتور عيدروس النقيب:

يوم الثلاثين من تشرين قد ذهلت
كل الشعوب بإعجاب تحيينا
لما نشرنا على الدنيا بيارقنا
خفاقة تبهر الدنيا أغانينا
بوحدة حدد الشعب مبادئها
وهيجت طربا منا الملايينا
بها سنجعل من أيامنا فرحا
دوما وتغدو بها عرسا لياليا
نحن اليمانيين نبني صرح وحدتنا
جسرا ونحميه لن نخشى أعادينا
سنزرع الحب عدلا فوق تربتنا
ونبذر الخير عرسا في روابينا
في كل عين وروح سوف نغرسه
سيسكن القلب منا والشرايينا
في حضرموت وفي إب وفي عدن
في لحج والجوف نحميه ويحمينا
ردفان يهفو إلى عيبان في شغف
عمران يشدو لشمسان فيشجينا

غدا نسطر للأجيـــــال ملحمـــة
بها سنشمخ دومـــــا في معالينـــا
يا وحدة الشعب دومي رمز عـزتنا
ومنبع الخير ماضينـــــــا وآتينـــا

ومـن أروع وأبـدع اللوحـات الشـعرية الخالـدة التـي جـادت بأرقـى وأسـمى قيـم الوطنيـة مـا نقشـته فرشـاة الشـاعر الأثـير المحلـق دومـا في مـدارات البهـاء والسـطوع الأسـتاذ عبـد الله معجـب في أكثـر مـن رائعـة، لطالمـا حفـظ هـذه الروائـع الكثـير ممـن طرقـت مسـامعهم لأول وهلـة، فأصبحـت جاسـوس كل قلـب مسـكون بعشـق وحـب هـذا الوطـن، ومنهـا:

حب التراب وخدمـة الأوطـــان
دين الأباة وفطرة الشجعـــــــان
وطني أحبك مخلصـــا لا أبتغـــي
طمعـا ولا أصبو مع الخـــــــوان
أطوادك الشمَّاء مصـــــــدر قوتي
وثراك معبد مهجتـــي وجنـــاني
من أجل مجدك كـم أثـور وأزدري
بسلوك كل مثبـــــط وجبـــان
ما قيمتي إن لم أصنك.. وأن أضـن
بعزيمتي وحشاشتي وكيـــانـي

ما قيمتـــي إن لم أهبـــــــك إرادة
تعنو لها الأكـــــوان والثقـــــلان
وطـني بحبك قد ملأت جوارحي
وله نذرت روائعـــــي وبيانـــي
أقسمت بالمجد التليد وبالـــذرى
بحصـاك.. بالوديان.. بالشطـــآن
ألا أراك الدهر إلا شـــــامخـــــا
جم الرخـــاء وسامق البنيـــــــان
فلك الحياة نذرتها يـوم الـــوغى
والسلم فيه أنا الـدؤوب البـــــاني

* * *

«استوصوا بالمعزى خيرا»

كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جانب كونه نبيا ورسولا قائدا سياسيا، ورجلا حكيما، ينزل جميع الناس منازلهم بلا استثناء، إلى حد أن يفرش لبعض زائريه رداءه، كما حصل مع كثير من أقيال اليمن، ويشيد بالجميع رفعا لمعنويات القوم، ولفتا منه إلى الجانب الإيجابي والمشرق في حياة الإنسان، وإن كان فيه بعض المثالب أو السلبيات، فطبيعة القائد يربي رجاله وأتباعه بالرفع من معنوياتهم، وبإغضاض الطرف عن بعض الهنات الهينات، أو معالجتها بطريقة خفية، وغير مباشرة.

وباستقراء سنته القولية والعملية على الطريقة الكلية نجده في الغالب قد مدح كل الناس وأشاد بهم، كقائد حكيم وسياسي بارع، يركز على ما هو إيجابي ويعززه في النفوس، لتستمر تلك الخصال الطيبة؛ لاسيما والعرب ميالون إلى الفخر، وقد حاز شعرهم نسبة كبيرة في ذلك..

مَدَح النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهل اليمن، فقال: «الإيمان يمانٍ والحكمة يمانية» ليس ذلك فحسب؛ بل لقد مدح بطونا وقبائل في اليمن بحد ذاتها، كإشادته بهمدان ونجران وزبيد والمعافر وغيرهم..

ومدح النبي أهل الحجاز، فقال: «الإيمان في أهل الحجاز".

ومدح أيضا أهل الشام كما في حديث أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، وأومأ بيده إلى الشام». كما قال في حديث آخر: «ألا إن عُقر دار المؤمنين الشام». وقال: « ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام".

وأشاد بذكر أهل عمان حين ضرب بعضُ الأعراب أحدَ أصحابه، فقال له: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ عُمَانَ أَتَيْتَ مَا سَبُّوكَ وَلَا ضَرَبُوكَ». داعيا لأهل عمان: «اللهم وسع عليهم في ميرتهم، وأكثر خيرهم من بحرهم".

وقال عن بني تميم: «هم أشد أمتي على الدجال".

كما قال عن قبيلة جهينة: «جُهَيْنَةُ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ؛ غَضِبُوا لِغَضَبِي وَرَضُوا لِرِضَائِي؛ أَغْضَبُ لِغَضَبِهِمْ وَأَرْضَى لِرِضَاهُمْ؛ مَنْ أَغْضَبَهُمْ فَقَدْ أَغْضَبَنِي؛ وَمَنْ أَغْضَبَنِي فَقَدْ أَغْضَبَ اللهَ".

وفيما يشبه المدح كانت وصاياه ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي لا تزال وسامًا على صدر كل الشعوب إلى اليوم، فقال في المصريين على سبيل المثال: «استوصوا بأهل مصر خيراً، وبأرض الكنانة»؛ بل لقد استوصى منهم بالقبط أيضا على وجه الخصوص، فقال: « استوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما".

واستوصى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأعراب فقال: «استوصوا بالأعراب خيرا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام".

واستوصى بأصحابه المهاجرين قائلا: «استوصوا بالمهاجرين

الأولين بعدى خيرا». وبالمقابل ـ وهو القائد والنبي المرسل للجميع ـ قال أيضا في حق الأنصار، الكيان الموازي للمهاجرين: «أوصيكم بالأنصار فإنهم كَرِشِي وعَيبتي وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فأقبلوا من مُحسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم». وبصورة إجمالية يوصي أتباعه من بعده إلى يوم الدين بأصحابه، فيقول: «لا تسبوا أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه»، مع الإشارة هنا إلى ألا تعارض البتة بين حق هذا الطرف أو ذاك، أو استحقاق طرف على حساب الطرف الآخر، فالكلُّ أمامه سواء.

وإلى جانب وصيته بأصحابه بصورة عامة، فقد أوصى ببعضهم ومدحه وأكرمه أمام القوم، تعظيما لشأنه أو تقديرا لموقفه، كما يقدر القائد أتباعه، وكما يكرم المعلم تلاميذه، فقال مثلا في حق أبي بكر: «لو كنتُ مُتَّخِذًا خليلاً، لاتخذتُ أبا بكر خليلاً..». وقال في حق عمر: « »لو كان بعدي نبي لكان عمر». وقال في حق عثمان بن عفان: « أَلاَ أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلاَئِكَةُ». وقال في حق علي بن أبي طالب: «من كنت مولاه فعلي مولاه». وهو الحديث الذي يستدل به المهووسون بحب علي بن أبي طالب على أفضليته على الخلق، والواقع أن حديث النبي في عمر السابق، أقوى دلالة وحجية من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ إذا ما اعتبرنا أن هذا المدح أو الإشادة يترتب عليه من الامتيازات الدنيوية ما يترتب..! ولعمري لو كان قال النبي ـ صلى الله عليه

وسلم ـ في علي ما قاله في عمر، لكان حجة في تقديمه وأفضليته على غيره.. إلخ.

ليس هؤلاء فحسب؛ بل لقد أشاد بغيرهم من بقية الصحابة، كما قال عن خالد بن الوليد بأنه سيف الله المسلول، وقال عن حنظلة أنه غسيل الملائكة، وقال عن عمه حمزة أنه سيد الشهداء، كما قال عن سلمان الفارسي أنه منه، من آل البيت، وأيضا قال في عمه العباس: «استوصوا بالعباس خيرا فإنه بقية آبائى، فإنما عم الرجل صنو أبيه». ومنح بلال بن رباح الحبشي الأذان كوظيفة دينية مرموقة يومها، ولم يمنحها لأحد من أقاربه، وهو تقدير وتشجيع منه للطبقة التي جاء منها بلال بن رباح رضي الله عنه، وهي طبقة العبيد آنذاك.. والشواهد فوق أن تعد أو تحصى..

إلى جانب هؤلاء مدح جنس النساء بشكل عام، مستوصيًا بهن خيرا، فقال: «استوصوا بالنساء خيرا» وداخل جنس النساء، مدح وأشاد بالمرأة كأم، فقال: الجنة تحت أقدام الأمهات، وبشر الزوجة المطيعة لزوجها بالجنة. وهو ذات الشأن أيضا في قوله عن الكهول من الرجال: «استوصوا بالكهول خيرا، وارحموا الشباب». وفي يوم بدر، وبعد توزيع الأسرى قال: «استوصوا بالأسرى خيرا». كما قال أيضا في ذات الشأن: « استوصوا بأهل الذمة خيراً".

ليس ذلك فحسب؛ بل لقد استوصى حتى بالماعز، لرقته وعدم تحمله الجوع والبرد كالجمل أو الناقة، فقال: «اسْتَوْصُوا

بالمِعْـزَى فإنـه مَـالٌ رَقيـق".

الشـاهد: أنـه ـ صـلى الله عليـه وسـلم ـ مثلـما قـال كل ذلـك في كل مـن ذكـر، قـال أيضـا في حـق أهـل بيتـه: «أوصيكـم بعـترتي خـيرا». أي أن وصيتـه فيهـم كوصيتـه في بقيـة الأقـوام والأجنـاس والأمـم والذكـور والنسـاء؛ بـل والحيوانـات..! فلـماذا الاسـتغلال البشـع لنـص مـن كلمتـين، وردت في حـق آخريـن أضعـاف أضعافـه، ولم يقولـوا نحـن أولى الخلـق وأفضلهـم لأن الرسـول قـال فينـا كـذا وكـذا؟؟!

باختصـار.. أهـل البيـت خلـق مـن خلـق الله.. «واسـتوصوا بالمعـزى..".!

* * *

المنطلقات الكبرى في الثقافة اليمنية

الثقافاتُ بطبيعتها مؤثرة ومتأثرة، وهي متداخلة مع بعضها من قديم الزمن، وبين يدينا العديد من هذه النماذج كالتأثير والتأثر بين الحضارتين الهندية من جهة والفارسية من جهة أخرى. وأيضا بين الحضارة الفارسية والحضارة العربية الإسلامية من جهة أخرى، فقد تداخلتا حد الامتزاج. ومع هذا يظل لكل بلد خصوصيته الثقافية، المنطلقة من أرضيته المعرفية الخاصة، المتشكلة من التاريخ بتفاصيله ومن الجغرافيا بتعاريجها، فعبقرية المكان حاكمة لا تقل أهمية عن عبقرية الزمان أو الأشخاص، وهي متحكمة في صناعة الأحداث الكبرى.

ومن الطبيعي أن تزداد عملية التأثر والتأثير اليوم في ظل العولمة والفضاءات المفتوحة ووسائل الاتصال والمواصلات، فتتماهى الحدود الثقافية وتنساح كثيرٌ من المفاهيم والقيم الخاصة بالشعوب في بعضها البعض، مع الأخذ بالاعتبار أن الكيان الأقوى هو الأكثر تأثيرا؛ لأن المغلوب مولع بتقليد الغالب، وفقا لابن خلدون.

وتتشكل الثقافة اليمنية من دعامتين أساسيتين، كمرجعية عُليا في القيم والتصورات وأنماط السلوك.

١ـ الهوية الحضارية والتاريخية

اليمن من البلدان العريقة حضاريا، وحضارتها ـ التي تعد من أولى الحضارات الإنسانية ـ لم تكتشف كاملة بعد. هذا إن لم تكن هي الحضارة الإنسانية الأولى التي تشكلت على وجه الأرض. وقد مرت بأطوارٍ عدة من التقدم والرخاء ثم تراجعت، حتى كان انهيار السد في القرن الميلادي السادس، وقيل قبل ذلك، على خلاف بين المؤرخين. شكلت هذه الحضارة ـ ولا تزالُ ـ مرجعية في بعض السلوكيات والأنماط الاجتماعية إلى اليوم على تقادم عهدها، وكأن تلك الحضارة تجري في دماء وجينات اليمنيين إلى اليوم. من هذه الملامح التي لا تزال ماثلة إلى اليوم، ثقافة بناء المدرجات والسدود، ومنظومة الأعراف القبليَّة الشفاهية، كقوانين غير مكتوبة في غالبها، وبعض الطقوس الدينية التي مارسها اليمنيون قديما، وأقرها الإسلام، وفي مدونة القديس «جرجينتي» من القوانين الحميرية ببنودها الأربعة والستين ما يكفي للجزم بعراقة وأصالة هذه الحضارة.

ولا تعتبر مدونة «جرجينتي» لوحدها ملمحا حضاريا؛ بل إلى جانبها منظومة القوانين الأخرى في مجال الزراعة والبناء واستصلاح السدود وتأجير الممتلكات والعقارات كما أشارت إلى ذلك نصوصُ المسند؛ وكذلك في المجال التجاري فقوانين سوق «شمّر» في الدولة القتبانية أنموذج لمدى الرقي الحضاري الذي وصلت إليه اليمن قديما؛ أما تشريعات دور العبادة الاجتماع لدى

اليمنيين القدماء ففيها ما يدهشُ العقل، فقد كشفت نصوص المسند عن عشرات النقوش التي تنص على ما يمكن أن نسميَه بلغة اليوم القوانين الزراعية وحق كل فرد في الري والزراعة وضبط المخالفين، وايضا تأجير العقارات والمساكن، ليس ذلك فحسب؛ بل نصوص تحكي تصاريح بناء مساكن جديدة في اليمن القديم، أما تعاليم المعابد فقد كانت من الإدهاش بمكان، وكشفت أن اليمنيين مارسوا النذور والفدية والكفارة والحج بكافة أركانه المعروفة اليوم والصلوات، بما فيها صلاة الاستسقاء وغيرها، وفرضوا قوانين صارمة ضد من يدخل المعبد على غير طهارة، أو يدخل وسيفه مخضب بالدماء، ومنعت تعاليم المعابد دخول المعبد لمن أكل ثوما أو بصلا.

ما أود أن نوضحه هنا تحديدا أن الشعب اليمني يستند إلى هوية حضارية عريقة، ذات صبغة إنسانية عادلة، لها صلتها بالحضارات الأخرى التي تشكلت على ضفاف النيل في مصر أو الفرات في العراق، مع الإشارة هنا إلى أن ما يميزها عن هذه الحضارات إنسانيتها ورقيها الحضاري الأكثر مدنية، كما تكشف عن ذلك نصوص المسند، ولذا لم نقرأ في تاريخ الحضارات اليمنية المتعاقبة عن طغيان الفرعون في مصر او استبداد النمرود في العراق، وباستقراء شريعة حمورابي في بابل ومقارنتها إلى القوانين اليمنية نجد أن القوانين اليمنية مرتكزة على الجانب الإنساني الخالص، لا تحمل عنف أو طبقية قوانين حمورابي، كما لا تحمل نزعتها

الاستبدادية في الحكم؛ بل لقد كان نظام الحكم في اليمن شوروي «ملئي» من خلال مجالس المسود والأقيال..

وبشكل عام، فهذه وغيرها من الملامح التاريخية منطلقاتٌ حضارية لشعب بلغ أوج حضارته في زمن كانت أوروبا كاملها جليدا غير قابل للسكنى، وكانت أغلبُ شُعوبِ المعمورة ترزح تحت نير الاستبداد والطغيان والإقطاع المتحكم؛ أما اليمنيُّ فقد كان سيدًا برأسه، لم يعرف الاستبداد أو يألفه مطلقا. وحين جاء الإسلام لعب الدور الأبرز في الفتوحات الإسلامية شرقا وغربا، بتقاليده العسكرية الموروثة، وهي تقاليد دولة بتكتيكها الحربي، لا تقاليد فرد بخبرته الشخصية.

إن جينات الحضارة لا تزال تجري إلى اليوم في دماء اليمنيين وأوردتهم، ولا يزالون يبحثون في وعيهم الجمعي عن فردوسهم المفقود وحضارتهم المدفونة التي حطمت الإمامة مآثرها، وأتت عليها من قواعدها خلال فترة حكمهم كاملة، وقد تعاملت مع هذا الموروث كما لو أنه ضرة سياسية لها، فدمرت آثار اليمن ومعالمها الحضارية واهمةً أنها ستحل هي بأصنامها البشرية محلها، ولكن دون ذلك خرط القتاد.

إن من يتأمل في منظومة الأعراف القبلية يجدها تكتنز بقيم إنسانية واجتماعية على قدر عالٍ من الرقي والتقدم، بصرف النظر عما شابَها من بعض الجزئيات التي لا تعبر عن مقاصدها الكلية. هذه الأعراف تنتمي ــ في جزء منها ــ إلى تاريخ اليمن الحضاري

القديم، وهي التي حفظت السلم الاجتماعي، ورعت مصالح الناس ومعاشهم وأحوالهم في وقت غابت فيه الدولة بقوانينها الرسمية، ولا تزال إلى اليوم.

هذه المنظومة العُرفية جعلت اليمني يحتكم إلى المبادئ الإنسانية والقيم الأخلاقية بوحيٍ من الضمير الخالص، رغبة في التميز والترقي الاجتماعي، ورهبة من العار الذي قد يلحقه إذا ما تجاوز أخلاقيّات المجتمع، خلافا لكثيرٍ من الشعوب التي لا تحتكم للقانون إلا رهبة من لهيب السياط التي تلفح ظهره أو حد السيف المرهف الذي يفصل رأسه عن جسده. وهي ميزة وثقافة كان من الممكن أن نبنيَ عليها قيم الدولة المدنية الحديثة، وأن تكون أحد روافع البناء والتنمية الاجتماعية؛ لكن للأسف ذلك ما لم يكن، بسبب إخفاق قياداتنا السياسية في النصف الثاني من القرن العشرين في بناء الدولة العصرية على ما حققوه من إنجازات يسيرة؛ أما قبل ذلك فلم يكن ثمة حلم لبناء دولة، وقد كانت الإمامة متحكمة بالشعب في شماله، وهي الكهنوت الغاصب الذي لا يهمه بناء دولة أو صناعة مجتمع، وفي الجنوب كان الاحتلال جاثما على صدره، وكان كلٌ منهما وجهين لعملة واحدة.

٢ـ القيم الدينية

مثّلَ الإسلامُ بقيمه الأخلاقية وتعاليمه الدينية أحدَ عوامل النهوض الحضاري للعرب، وقد كان اليمنيون عمادَ هذه الدعوة الجديدة على أكثر من صعيد؛ كونهم أكثر الناس تطلعًا لاستعادة الذات الحضارية التي افتقدوها قبل ذلك بعقود من خلال الفكرة الجديدة؛ لذا هبُّوا إلى الإسلام مؤمنين بمجرد النداء الأول والرسالة الأولى من نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم.

وإضافة إلى القيم الحضارية السابقة في وعي اليمنيين وثقافتهم كانت قيمُ الإسلام تشكل رافدًا جديدا في التحديث الفكري والثقافي، وفيما اندثر أو تآكل في منظومة الأخلاق والسلوك خلال الفترة السابقة للإسلام التي بدأ فيها اليمنيون بالانحدار الحضاري، فامتزجت تعاليم الدين الجديد بقيم الحضارة المتلاشية، وهي قيم إنسانية ومدنية على قدر من الترقي، كما أسلفنا، ولا تضاد بينهما، إلا أن كل هذا لم يجعل من اليمن مركزا حضاريا جديدا، بحكم تمركز الحضارة الجديدة في مكة والمدينة ثم دمشق وبغداد والقيروان فالقاهرة، في الوقت الذي استنزفت الفتوحات الإسلامية أغلب القيادات المجتمعية الفاعلة في اليمن، فكانوا رجالات الفتح الأوائل وقادة الجيوش في كل من اليرموك والقادسية، ثم في فتوحات بلاد فارس ومصر والمغرب والأندلس، والذين حل محلهم المتورد القادم يحيى حسين الرسي، إمام ما يسمى بآل البيت في اليمن، الذي أسس دويلة على

أساس عنصري مقيت في شمال اليمن، بعد أن فرّ من عدالة الخلافة العباسية في بغداد إلى جبال اليمن الحصينة، وظل الصّراع قائما بين نسله وبين اليمنيين إلى مطلع ستينيات القرن الماضي؛ بل إلى اليوم. مثّلَ هذا الصراعُ حالة من الاستنزاف الجديد لمقدرات المجتمع اليمني وخيراته، بما فيه رأس المال البشري نفسه الذي طحنته الحروب والثارات، كما دمره التجهيل المتعمد من قبل حكام هذه السلالة الذين يسوؤهم تميُّز أي يمني أو نجاحه.

ومن المرجعية الإسلامية يستمد الشعب اليمني ثقافته، إضافة إلى هُويته الحضارية التاريخية، بقيمها الأصيلة التي عززتها تعاليم الدين وقيمه السمحة. ومن هنا نستطيع أن نبني يمننا الجديد ــ ثقافيا ــ من هذا المنطلق، ووفقا لتلك القيم كموجهات عامة في السلوك والعيش المشترك. وهي موجهاتٌ قمينة بصناعة مجتمع رشيد، متسامح وقابل بالآخر مهما اختلف معه، الأمر الذي يُحيل التنوع الحاصل إلى قوة فاعلة وإيجابية لبناء الدولة الضامنة.

ووفقا لما سبق نستطيع القول أن الهوية الثقافية اليمنية متشكلة من التاريخ الحضاري للشعب اليمني بامتداده العريق، وأيضا من قيم الدين الإسلامي الحنيف وتعاليمه الشاملة، وهما دعامتان ثقافيتان تشكل هوية اليمن في الوقت الحاضر وذاتها الحضارية.

* * *

الدولة الرسولية في اليمن
تقدم علمي، رفاه اجتماعي، إنجاز حضاري

قامت الدولة الرسولية في اليمن فيما بين: ٦٢٦هـ ـ ١٢٢٨م ـ ٨٥٨هـ ـ ١٤٥٢م. أي ما يزيد عن قرنين وربع القرن من الزمن. وكانت دولة سنية، شافعية، عاصمتها الجَنَد بتعز، وقد بسطت كامل نفوذها على كل الأراضي اليمنية، بل وخارج اليمن. وتُعتبر هذه المرحلة هي أزهى وأرقى مراحل التقدم الحضاري والاستقرار السياسي في تاريخ اليمن الإسلامي؛ إذ لم تشهد اليمن قاطبة في تاريخها الإسلامي ما شهدته من الازدهار والاستقرار أثناء قيام الدولة الرسولية؛ وهي أعظم دولة شهدها اليمن منذ سقوط مملكة حمير قبل الإسلام.

والدولة الرسولية تنتسبُ إلى جد مؤسسها الأول، وهو نورالدين عمر بن علي بن رسول، عقب انتهاء الدولة الأيوبية في اليمن، بوفاة الملك المسعود يوسف بن الكامل الأيوبي، آخر حكام الدولة الأيوبية في اليمن؛ حيث عمل عمر بن رسول على تنظيم البلاد، بحيث تكون تحت سيطرته الكاملة، فعزلَ من ولاتها من يخشى مقاومته، وقام بتولية أتباعه، ومن يثق بهم على المدن والحصون. واتخذ من منطقة الجَنَد في عدينة «تعز حاليا»

عاصمة لدولته الجديدة. وظل السلطان المنصور يحكم بلاد اليمن ويثبت دعائم دولته، واستطاع توحيد معظم البلاد التي كانت ممزقة آنذاك تحت حكمه، ونعمت اليمن خلال حكمه بالأمن والاستقرار، وأُنشئت في عهده الكثيرُ من المنجزات الحضارية، مثل المساجد والمدارس والقصور ونشطت التجارة الداخلية والخارجية، وتوسعت الزراعة، وعمّ الأمنُ والأمانُ والرفاه الاجتماعي.

وقد امتد حكمه حتى مكة المكرمة؛ حيث قَدِمها في موكب كبير في شهر رمضان من العام ٦٣٩هـ، وطرد منها المماليكَ المصريين، ولاحقَ فلولَهم إلى «ينبع» في المدينة المنورة، وأبطل السلطان نور الدين عن مكة سائر المكوسات والجبايات والمظالم، وكتب بذلك مَرْبعة «قطعة من الرخام يُنحتُ فيها» وجُعلت قبالة الحجر الأسود.

وذكر ابن الديبع في تاريخه أن السلطان عمر بن رسول زارها سنة ٦٣٥هـ في ألف فارس، وبذل لكل جندي مقيم بمكة يُقبل إليه ألف دينار، وفرَسَا وكسوة، فمال إليه أكثرهم.

وقبل ذلك ــ وتحديدا في سنة ٦٣١هـ ــ أرسل إلى الشريف راجح بن قتادة بقناديل من الذهب والفضة، ليعلقها بالكعبة، بدلا من تلك التي استباحها بنو قتادة أثناء صراعهم مع أخيهم الشريف راجح.

معالم العهد الرسولي:

لا مثيل لأي دولة في اليمن منذ مملكة حمير غير الدولة الرسولية التي أبانت الوجه الحضاري لليمن، وأسفرت عن مدنيّة راقية، وقوة ضاربة لا نظير لها آنذاك. وهذا الرقي الحضاري والمدني نابعٌ أساسًا من قوانين وأنظمة متقدمة جعلت الإنسان هدفا وغاية على كل حال، مهما كان دينه أو لونه أو جنسه، فقد مارسَ اليهود كافة طقوسهم الدينية، ومارسوا كل أنشطتهم اليومية بكل حرية ويُسر أثناء الحكم الرسولي، ولم يواجهوا من المضايقات والاحتقار ما كانوا يلاقونه من الأئمة الزيدية قبل ذلك أو بعده. لقد صار منهم الصانع والحرفي والطبيب، إلى حد أن أطباء بعض السلاطين كانوا يهودا؛ خلافا لغيرها من أنظمة الحكم التي استعبدت الإنسان وجعلته مسخا، بل وعدما، كما هو الشأن لدى الإمامة الهادويّة التي دمرت الأرض والإنسان، وأحالت الجنان المُمرعات إلى فيافى قاحلات، بفعل سياستها الفاشلة وسلاليتها المتطرفة.

الأسس السياسية للدولة الرسولية:

يأتي على رأس الهرم السياسي في الدولة الرسولية «السلطان» أي صاحب السلطة، وبحسب صاحب كتاب «الألقاب الإسلامية» فإن لقب السلطان كان لقبا من ألقاب التشريف الشخصي، ولم يصبح لقبا عاما متداولا إلا بعد أن وُجد الولاةُ المستقلون.

وتأثر الرسوليون بالخلفاء العباسيين فلقبوا أنفسهم ألقابا

دينية، المؤيد والناصر والمنصور والمظفر، بعضها مضافة إلى لفظ الجلالة، كنوع من الهيبة الدينية والسياسية معا. كما اتخذوا أيضا وليا للعهد، وهو ما جعل الحكم ينتقل بسلاسة من الخليفة إلى ولي عهده ــ كما كان الشأن عند الخلفاء العباسيين ــ عدا مراتٍ قليلة حصلت فيها حروبُ التنافس على الحكم عقب وفاة السلطان/ الملك. وهي ميزة لا توجد في الفقه الهادوي، وكان الفراغ الذي يخلفه «الإمام» هو السبب الرئيس لاندلاع معركة من اللحظات الأولى لوفاة الإمام، ولذا بدا تاريخهم كله سلسلة من الحروب ونهرا من الدماء وتلالا من الجماجم؛ لأن الإمامة لا تصح عندهم إلا بعد الخروج بالسيف.!

وكان السلطان يقود الجيوش ويراسل الحكام والملوك خارج دولته، ويستقبل كبار القادمين إليه، ويعين الوزراء والقادة والأمراء والقضاء ويوزع الإقطاعيات والمنح على من يرى.

أما بالنسبة للجيش في الدولة الرسولية، فقد كان على قدر كبير من المهابة والقوة الذي فرضته الحاجة، ولعل أهم حاجة لذلك هي الإمامة الهادوية السلالية شمال البلاد، وهي جماعة حربية عسكرية، وتمتلك موروثا قتاليا كبيرا؛ كونها تأسست على الدم من بواكيرها الأولى. ولا ننس أيضا العامل الجغرافي كمحدد رئيس من محددات الصراع والحرب، فللطبيعة أحيانا أحكامها الخاصة في النصر والهزيمة، وكأنها تقاتل مع الإنسان.!

وإلى جانب الصراع الداخلي الذي خاضته الدولة الرسولية

خاضت أيضا صراعا مريرا من جهة البحر مع القراصنة الأحباش والهنود والمماليك المصريين، حتى استطاعت تأمين البحر الأحمر تجاريا وسياسيا بالقضاء على القرصنة بعد ملاحقتهم في البحار.

لقد كان حضور الرسوليين في البحر الأحمر على شقين اثنين: أحدهما عسكري، والآخر تجاري؛ خلافا لما كان عليه الوضع سابقا منذ انتهاء ممالك حمير، إذ كان حضور اليمنيين في البحر الأحمر تجاريا فقط، وذلك بحكم الدويلات التي كانت تتنازعه قبل ذلك، وبحكم الحروب الداخلية والأهلية التي سببتها الإمامة، بعد ورودها إلى اليمن، فلم تتوحد اليمن كاملة قبل الدولة الرسولية، وبالتالي فقد انشغلت كل دويلة فيها باهتماماتها الخاصة، وعرف اليمن لأول مرة الأسطول البحري المنظم في عهد الدولة الرسولية منذ مملكة حمير، وإن كان الأيوبيون قبل ذلك قد امتلكوا أسطولا خاصا بهم في عدن إلا أنه أشبه ما يكون بالوكيل القائم لحماية مصالح الأيوبيين في مصر أكثر منه لحماية المصالح اليمنية؛ أما في الدولة الرسولية فقد امتلكت سفنا خاصة بها..

وقد استمرت هذه السفن تقوم بواجبها في حماية الشواطئ اليمنية، وفي حراسة المراكب التجارية في عرض البحر خلال العهد الرسولي؛ بل زادت القطع البحرية وتنوعت أكثر من ذي قبل، وأصبحت تشكل أسطولا قويا، تعتمد عليه الدولة في خوض المعارك البحرية.

وتكونت عناصر الجيش اليمني في العصر الرسولي من اليمنيين

ومن الأحباش والمماليك، موزعين على وحدات عسكرية قتالية مدربة كالفرسان أو الخيالة والرجالة أو المشاة، والرماة وغيرهم. وقد اختلف المؤرخون في العدد الذي وصل إليه الجيش اليمني في الدولة الرسولية حتى قيل أنه وصل في بعض المعارك إلى ستين ألفا، بينما يذهب آخرون إلى أنه أقل من ذلك، مزودين بأسلحتهم الدفاعية والهجومية، وبوسائل النقل والرايات والأعلام، والطبول والأبواق، وبزيٍّ رسمي موحد للجميع، موزعين على الحصون والثغور على امتداد الدولة.

الدولة الرسولية والعلاقات الخارجية:

عادة الدول الكبيرة والامبراطوريات الواسعة أن يمتد نفوذُها خارج أراضيها. وقد كان لليمن إبان الدولة الرسولية حضور واسع خارج محيطها، نظرا لشهرتها وقوتها الداخلية. ليس على النطاق العربي أو الإسلامي فقط؛ بل تعداه إلى دول الحضارات القديمة كالصين والهند والحبشة وغيرهما، كما سنرى.

فقد امتد تأثير الدولة الرسولية إلى الصين، إذ يُروى أن ملك الصين حرم الختان على المسلمين في بلده، فانزعج مسلمو الصين من هذا القرار، فكاتبه السلطان الملك المظفر يشفع إليه في الإذن لهم بالختان، وأرسل إليه بهدية سنية، فقبل شفاعته، وأذن لهم في ذلك.

وفي عهده أيضا أرسل إلى مصر ٥٠٠ فارس بكامل عدتهم

وعتادهم، مشاركة من اليمن في الجهاد ضد الصليبيين، كما أرسل العديد من التحف والهدايا إلى سلطان مصر الظاهر بيبرس، في سفارتين اثنتين: الأولى عام ٦٦٩هـ والثانية عام ٦٧٤هـ، ويرد الظاهر بيبرس من جهته بالهدايا عليه، وتبعها العديد من السفارات المتبادلة بين الدولتين.

وكان السلطان الملك الناصر يرسلُ الأموالَ لتُوزعَ في مكة المكرمة في كثير من السنين، فضلا عن الصلات السنوية التي كان يبعثها لخطيب ومؤذن الحرم المكي الشريف، وفي المقابل كان يُدعى له في الخطبة بالمسجد الحرام، وعلى قبة زمزم بعد السلطان المملوكي.

المعالم الثقافية والعلمية:

لم تهتم دولة في اليمن بالتعليم كما اهتمت به الدولة الرسولية، ابتداء بمؤسسها وانتهاء بآخر ملك فيها؛ إذ أسس السلطان نورالدين عمر بن رسول سبع مدارس، هي: المدرسة المنصورية في الجند، وأخرى بالاسم نفسه في حد المنسكية بوادي سهام، والمدرسة الغُرابية في مغربة تعز، والمدرسة الوزيرية في مغربة تعز أيضا بالقرب من حصن تعز، والمدرسة المنصورية العليا، والمدرسة المنصورية السفلى في زبيد، الأولى لأصحاب المذهب الشافعي، والثانية لأصحاب مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، ومدرسة بالمنسكية بسهام، ومدرسة في عدن، أوقف لها أوقافا كثيرة في لحج

وعـدن، ووضـع في كل مدرسـة مدرسـا ومُعيـدا، ودَرَسـةً، وإمامـا ومؤذنـين ومعلـما وأيتامـا يتعلمـون القـرآن، وخصـص لـكل واحـد وقفـا. وأسـس المدرسـة المنصوريـة بمكـة المكرمـة، وكان يتصـدق عـلى أهـل مكـة والمجاوريـن لهـا كل سـنة بصدقـة جليلـة. وتفاصيـل هـذه المـدارس مبسـوطة مفصلـة في كتـاب قـرة العيـون بتاريـخ اليمـن الميمـون، لمؤلفـه المعـروف بابـن الديبـع، والـذي ذكـر أنـه ابتنـى في كل قريـة مـن التهائـم مسـجدا، وأوقـف عليهـا أوقافـا جيـدة، وكذلـك فعلـت ابنتـه في بنـاء المـدارس والمسـاجد.

وأسـس السـلطان المظفـر يوسـف بـن المنصـور عمـر المدرسـة التاجيـة بزبيـد، والمدرسـة المعروفـة بمدرسـة القـراءات بزبيـد، وقفهـا عـلى قـراء القـرآن، وأيضـا مدرسـة للحديـث النبـوي، وفي كل مدرسـة مـن هـذه المـدارس مـدرس وطلبـة وإمـام ومـؤذن، وأوقـف عليهـم وقفـا جيـدا، يقـوم بكفايـة الجميـع منهـم. وكان عالمـا محققـا في شـتى الفنـون.

وقـد بلـغ إنشـاء المـدارس في عهـد السـلطان المظفـر ذروتـه، فقـد ابتنـى هـو وأفـراد عائلتـه وحاشـيته وحدهـم ٣١ مدرسـة. ومـما يُنسـب للملـك المظفـر قولـه: «لا بـارك الله في والٍ مـن في رعيتـه مـن هـو أعلـم منه».

وكانـت مكتبـة السـلطان المؤيـد حديـث العامـة والخاصـة؛ إذ بلغـت مكتبتـه الخاصـة نحـو مئـة ألـف مجلـد، وكان لديـه زيـادة عـلى عـشرة نسـاخ ينسـخون الكتـب، وتُرفـع إلى خزانتـه بعـد مقابلتهـا وتحريرهـا.

كما بنت أم السلطان الملك المجاهد المدرسة الصلاحية في زبيد، ورتبت فيها إماما ومؤذنا وقيِّما ونازحا للماء إلى المطاهر بها، ومدرسا للشرع، ومدرسا في الحديث النبوي، ومدرسا في النحو، وطلبة في كل فن من الفنون، وأوقفت من خيار ما تملكه ما يقوم بكفاية الجميع، وابتنت قبالة المدرسة المذكورة خانقاه، كما بنت مدرسة أخرى في قرية المسلب من وادي زبيد، ومدرسة أخرى في قرية السلامة بكل ما تحتاجه هذه المدارس من المعلمين والوقف والجرايات، كما ورد في تاريخ المستبصر. وتذكر بعض الأخبار أن عدد المدارس التي أنشأتها الأميرات الرسوليات بلغت أربعا وثلاثين مدرسة.

وقد كان السلطان الملك المجاهد نفسه عالما وأديبا وشاعرا، يجالس العلماء ويجلهم ويكرمهم، وقد ذكر الإمام العلامة جمال الدين الريمي أنه أعطاه في أول يوم دخل عليه أربعة شخوص من الذهب، وزن كل شخص منها مئتا مثقال، مكتوب على وجه كل شخص منها:

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها على الناس طرا قبل أن تتفلت

فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ولا الشح يبقيها إذا هي ولت

والملك المجاهد نفسه هو الذي مدّنَ «ثعبات» في الجند، وبنى سُورها، واخترع فيها المخترعات الفائقة والبساتين الرائقة، وبنى فيها المساكن العجيبة والقصور الغريبة، وله من الآثار

الدينية مدرسة في مكة المشرفة، ملاصقة للحرم الشريف، يصلي المصلي فيها وهو يشاهد البيت الحرام، رتب فيها إماما ومؤذنا وقيما ومعلما وأيتاما ومدرسا وطلبة، واسمها المدرسة المجاهدية. وكانت أوقاف هذه المدرسة في ثلاثة مواضع من زبيد.

وقد اشتهر السلطان المجاهد بالذكاء والفطنة والفصاحة وقول الشعر، ومشاركته في العديد من الفنون الأدبية حتى قيل أنه أعلم بني رسول. ومن أعماله التأليفية:

١ـ الأقوال الكافية والفصول الشافية في البيطرة

٢ـ كتاب في الخيل وصفاتها وأنواعها وبيطرتها

٣ـ الإرشاد في علم الفلاحة

٤ـ ديوان شعر.

وبنى السلطان الملك الأشرف مدرسة حسنة الشكل، بها بابان شرقي وغربي، وباب يماني، ومقدم فسيح، وشمسية رحيبة، وتكوين عجيب، وابتنى فيها مطْهرا نفيسا، ورتب فيها إماما ومؤذنا وقيما ومعلما وأيتاما يتعلمون القرآن ومدرسا على المذهب الشافعي، ومعيدا، وعدة من الطلبة، ومدرسا للحديث، وآخر للنحو والأدب، ووقف فيها نفائس الكتب في كل فن، وأوقف عليها وقفا جيدا، وزاد الزيادة الشرقية في جامع عدينة، وفقا لما ورد في تاريخ المستبصر. وينسب إليه من المؤلفات:

١ـ العسجد المسبوك والجوهر المحبوك في طبقات الخلفاء

والملـوك

٢ــ فاكهـة الزمـن ومفاكهـة الآداب والفطـن في أخبـار مـن ملـك اليمـن

أيضـا فـإن للسـلطان عمـر بـن يوسـف بـن عمـر بـن رسـول كتابـا في فـن الزراعـة، «مِلـح المَلاحـة في معرفـة الفلاحـة»، كـما أن لنجلـه السـلطان الملـك المظفـر يوسـف بـن المنصـور عمـر بـن عـلي بـن رسـول عـدة مؤلفـات، منهـا:

١ـ العقد النفيس في مفاكهة الجليس

٢ـ البيان في كشف علم الطب للعيان

٣ـ المُخترع في فنون من الصّنع

٤ـ اللمعة الكافية في الأدوية الشافية

٥ـ المعتمد في الأدوية المفردة

٦ـ درج السياسة في علم الفراسة

٧ـ تيسير المطالب في تسيير الكواكب

٨ـ الأربعين في الحديث النبوي الشريف

أيضـا لابنـه الـذي أعقبـه في الحكـم «الأشرف» عـدة مؤلفـات، منهـا:

١ـ التبصرة في علم النجوم

٢ـ الاسطرلاب

٣ـ الإشارة في العبارة في علم الرؤيا
٤ـ التفاحة في علم الفلاحة
٥ـ تحفة الآداب في التواريخ والأنساب
٦ـ جواهر التيجان في الأنساب
٧ـ الدلائل في معرفة الأوقات والمنازل
٨ـ شفاء العليل في الطب
٩ـ المعتمد في الأدوية المفردة
١٠ـ المغني في البيطرة
١١ـ طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب

وكما ذكرنا سابقا فقد كان لابنه «المجاهد علي» أربعة مؤلفات، فإن لابنه الملك «الأفضل عباس» بعده عدة مؤلفات، منها:

١ـ بُغية ذوي الهمم في أنساب العرب والعجم
٢ـ العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية
٣ـ نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون
٤ـ الدرر والعقيان المختصر من تاريخ ابن خلكان
٥ـ بغية الفلاحين في الأشجار المثمرة والرياحين
٦ـ نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء
٧ـ نزهة الأبصار في اختصار كنز الأخيار
٨ـ دلائل الفضل في علم الرمل

٩ـ الألغاز الفقهية

ولا ننسى الإشارة هنا إلى أن أعظم سفر إبداعي في تاريخ العلوم تم إبداعه في العهد الرسولي وهو كتاب «عنوان الشرف الوافي في الفقه والتاريخ والنحو والعروض والقوافي». وتم تأليفه بطريقة هندسية بديعة، بقي حديث الخاصة والعامة مذ ذلك التاريخ وإلى اليوم؛ كون الكتاب واحدا؛ لكنه يضم بين دفتيه خمسة علوم، إذا قُرئ على حسب سياق السطور فهو علم الفقه، وإذا قُرئ أوائل السطور عموديا فهو علم العروض، وإذا قُرئ من آخرها عموديا فهو علم القوافي، وإذا قُرئ العمود الأول الذي يخترق الصفحة فهو تاريخ الدولة الرسولية، والعمود الثاني علم النحو.

فقد جعل ثلاثة علوم منه تتقاطع، فلا يختل معنى كل علم بهذا التقاطع، وهي الفقه، والتاريخ، والنحو، وأما علم العروض فقد بدأ بكل سطر منه بالحرف الذي يبدأ به السطر في علم الفقه، والتزم في علم القوافي بأن يبدأ كل سطر منه بالحرف الذي يبدأ به السطر في علم الفقه. ألفه الشيخ إسماعيل بن أبي بكر المعروف بابن المقري، تلميذ الإمام جمال الدين الريمي، قاضي قضاة الدولة الرسولية، وقد فرغ من تأليفه سنة ٨٠٤هـ -١٤٠١م.

إلى جانبه أيضا كتاب القاموس المحيط للعلامة مجدالدين الفيروز آبادي، ولشهرة الدولة الرسولية في الآفاق اشتهر الكتاب حتى صار المعجم الأول؛ بل لقد استبدل أهل اللغة كلمة

«معجم» بكلمة «قاموس» بعد ذلك، إشارة إلى القاموس المحيط. وألفه للأشرف الرسولي إسماعيل بن عباس، وكان الأشرف قد تزوج ابنته، وولاه قضاء الأقضية باليمن عام ٧٩٧هـ، وذلك في أوج ازدهار الدولة الرسولية، فاصطبغ كتابه بشهرة هذه الدولة، وقد أعرض الناس عن كل معاجم اللغة واكتفوا بالقاموس.

أيضا قاموس الملك الأفضل العباس بن المجاهد بن علي الذي احتوى على نحو ألف ومئتي كلمة تتعلق ــ في أكثرها ــ على فن الطبخ والملابس وعلم الفروسية والصحة وعلم التشريح، مدونا مفرداتها التي وضعت باللغة العربية التي وُضعت في العمود الأول، وبجوار كل كلمة منها ما يقابلها باللغة الفارسية والتركية والإغريقية والبيزنطية القديمة والصقلية والأرمينية والمغولية في أعمدة موازية لها.

لقد تم تكريم أهل العلم في الدولة الرسولية بصورة لا مثيل لها؛ إذا أغدق السلاطين الملوك عليهم الخلع والسنايا، وأجزلوا لهم الرواتب، وأدنوهم من مجالسهم وحلقاتهم، وعفوا عن أي رسم من مكس أو ضريبة على أي عالم أو أديب أو فقيه؛ ليس ذلك فحسب؛ بل لقد كان بعض الملوك يحضر حلقات العلماء مع جموع الحاضرين. وأعجب من هذا حين أكمل الإمام جمال الدين الريمي «٧١٠ــ ٧٩٢هـ» تأليف كتابه «التفقيه شرح التنبيه» ٢٤ مجلدا، قدمه للملك الأشرف، فحُمل الكتاب على رؤوس الطلبة بأطباق الفضة، وبأثواب الحرير والديباج من منزل القاضي

جمال الدين الريمي إلى قصر الملك الأشرف، في موكب مهيب، حضره العلماء والأمراء والطلبة، واستقبله السلطان الأشرف، ثم أجازه بـ ٤٨ ألف درهم، وتعادل ١٢ ألف دينار، تقديرا للعلم والعلماء.

وذات الشأن أيضا مع كتاب مجد الدين الفيروز أبادي «الإصعاد في الاجتهاد» ٣ مجلدات، قدمه للملك الأشرف إسماعيل في حفل بهيج؛ إذ حُمل الكتاب إلى باب السلطان في زفة كما تُزف العروس، والطبول تقرع، يرافقه العلماء والأمراء، فكافأه الملك بثلاثة آلاف دينار.

ولما علم علماء الأقطار الإسلامية الأخرى بهذه المنزلة الكبيرة للعلم والعلماء لدى الحكام الرسوليين في اليمن قصدوا بلاد اليمن، واتصلوا بأمرائها وملوكها، ونالوا منهم الخلع والهدايا والمال الوفير، كالحجاجي والصاغاني والبيلقاني والحافظ المحب الطبري الذي أهدى كتبه للملك المظفر، وقدم إليه من بلاد الهند صفي الدين محمد بن عبدالرحيم، وآخرون. ولعل أشهر من قدم من خارج اليمن الإمام المحدث ابن حجر الهيثمي العسقلاني، شارح صحيح البخاري، قدم إلى اليمن بعد أن استدعاه الملك الأشرف إسماعيل، فأكرمه بمئة ألف دينار. وأيضا العالم اللغوي مجد الدين الفيروز أبادي، استدعاه الملك الأشرف، وكان ببلاد الهند، فقدم منها، فأحسن استقباله وضيافته وإكرامه، وولاه منصب قاضي الأقضية، وسكن مدينة زبيد حتى توفي سنة

٨٧١هـ.

وقد أمكن حصر ما يزيد عن مئة وخمسين مدرسة شُيدت في العصر الرسولي، منها ثلاث مدارس في مكة المكرمة، والباقي موزعة على مختلف بلدان ومدن اليمن.

* * *

الأوقاف اليمنية
سلوكيات مدنية وأبعاد إنسانية

في سلوكيات وأفكار بعض المجتمعات، وخاصة المجتمعات التاريخية ما يستدعي التوقف عند بعضِ تفاصيلها، والتأمل في فلسفتها ودوافعها لاستشفاف الحقيقة، واستجلاء الفكرة من جميع جوانبها.

الأوقاف والنذور في اليمن ثقافة قديمة، قدم المجتمع اليمني نفسه، وهي واحدة من الشعائر والسلوكيات التعبدية التي مارسها اليمنيون من قبل الإسلام بمئات السنين، فقد أوقف اليمنيون كرائم أموالهم للمعابد والمقدسات الدينية عن طيب خاطر وهناء نفس؛ حيث تم تعيين الجبايات والنذور والوقف لها من أثمن وأغلى ما يمتلكه الناس؛ لأهميتها الروحية والتي بدورها تقوم بإعادة هذه الأموال في بناء المشاريع العامة التي تعود بالنفع على عامة الناس. وكان كل معبد يتمتع بوقفيّات ونذريات كبيرة، سواء من الأراضي الخصبة، أو من عشور التجارة، أو من الهدايا العينية التي يهديها الناس لها، إلى حد إهداء المعابد النفسَ والولد؛ معتقدين أن هذه الإهداءات والأوقاف تصرف عنهم رزايا الزمن وصروف الدهر، وأيضا تمنحهم البركة في المال والأنفس، أو تكسبهم النصر في المُنازلات الحربية. وقد

بيّنت نصوصُ المسند كثيرًا من هذه العينات التي يهديها الناس وينذرونها للمعابد، كالحبوب، والبخور واللبان، والذهب، والنفس، والولد، وأشجار البلح، والتماثيل، وتُدوّنُ هذه الهدايا على ألواح خاصة في المعبد. ويقدم الناذرون أو الواقفون للمعبد العُشر من عائداتهم، سواء من المحاصيل أو من التجارة كما وردت الإشارة إلى ذلك في نقوش معبد بلقيس التي تعود إلى عهد الملك نشا كرب يهنعم يهرجب في القرن الرابع قبل الميلاد، وكما وردت في نصوصٍ مُسندية أخرى، وهي كثيرة على امتداد اليمن.

ولعل هذه الشعيرة ــ التي تنطوي على بُعدٍ إنساني وديني في جوهرها ــ من الشعائر الدينية التي بقيت بعد الإسلام، وحث عليها الدين الإسلامي الحنيف بعد ذلك، وإلى اليوم. اختلفت فاعليتها من فترة إلى أخرى، بحسب حياة المجتمعات ومدى وعي الناس وحاجتهم إليها.

ومن يتتبع تاريخ الأوقاف في اليمن يجد عملا تاريخيا عملاقا، منطلقا من ثلاثة أبعاد أو منطلقات رئيسية للواقفين والناذرين:

المنطلق الأولى: ديني، ويتمثل في أوقاف ونذور المعابد والمقدسات الدينية قبل الإسلام، ثم المساجد والمقابر بعد الإسلام، وقد أشرنا إلى طرف من أوقاف المعابد قبل الإسلام آنفا؛ أما في الإسلام فقد مثلت الدولة الرسولية النموذج الأرقى والأكبر في مختلف أنواع الأوقاف ومنها الأوقاف الدينية، ولا يكاد سلطانٌ أو خليفة من خلفاء الدولة الرسولية إلا وله مسجد ومقبرة باسمه؛

بل إن الجواري في الدولة الرسولية أيضا كان لهن مساهماتٌ علمية ودينية، منهن ثلاث جوارٍ من جواري أم السلطان الملك المجاهد، إحداهن: الحاجة سمح التي ابتنت مسجدا عند سوق الشباك بزبيد، والثانية الحاجة قنديل التي ابتنت مسجدا شمالي باب القرتب بزبيد، وكانت الثالثة الحاجة غصون التي ابتنت مسجدا جنوبي دار السلطان، وقد قدّمن الأوقاف الجيدة التي تفي بحاجة القائمين على هذه المساجد، وهذه في مدينة زبيد وحدها، ناهيك عن بقية مدن اليمن. وذات الشأن أيضا في الدولة الطاهرية التي تلتها.

المنطلق الثاني: تعليمي؛ وذلك استشعارا من الواقفين بأهمية التعليم، فقد أقفوا له الإقطاعيات المهولة، وعنوا بها، ووثقوا صكوكها، لتتوارثها الأجيال جيلا بعد جيل، ولا يكاد يوجدُ مسجدٌ جامعٌ إلا وحوله عشرات النُّزُل المُلحقة به، كفصول دراسية، يتعلم الطلاب فيها صنوف العلوم ومختلف الفنون. فمن خلال البحث في المصادر والمراجع التاريخية والمتخصصة التي تناولت تاريخ الدولة الرسولية أمكن حصر ما يزيد عن مئة وخمسين مدرسة شُيدت في العصر الرسولي فقط، منها ثلاث مدارس في مكة المكرمة، والباقي موزعة على مختلف بُلدان ومدن اليمن، ولا يخطرن ببال المستمع الكريم أن هذه المدارس كمدارس اليوم، إنما كانت مدارس أشبه بالأكاديميات المبكرة، يقصدُ كلا منها مئاتُ الطلبة من مختلف الأصقاع، من بينهم مريدون من

خـارج اليمـن، مـن الهنـد وأندونيسـيا وشرق أفريقيـا، فيدرسـون مختلـف العلـوم والفنـون، ويغادرونهـا علـماء متفقهـين، كل منهـم في مجـال تخصصـه. ومـن وظائـف هـذه المدرسـة إلى جانـب المعيـد والمعلمين والطلبـة والكتـب التي تُـدرس، أيضـا جامعٌ خـاصٌ بهـم، وإمـام يؤمهـم في صلاتهـم، ومـؤذن، وقيّـم، وناظـر الوقـف ونائبـه، وحافـظ الكتـب، والسّـقّاء. وكأن هـذه المدرسـة أكاديميـة أو جامعـة مصغـرة. وكانـت هـذه المـدارس تعلـم الطلبـة علـوم القـرآن الكريـم والحديـث النبـوي والفقـه وأصولـه وعلـوم اللغـة والأدب والشـعر وعلـم التصـوف والتاريـخ والفلـك والحسـاب والطـب والزراعـة والبيطـرة.

وإلى جانـب الدولـة الرسـولية أيضـا المطرفيـة ــ وهـي الجماعـة العلميـة ــ التـي خرجـت عـن الإمامـة الهادويـة وناوءتهـا فكريـا، متخليـة عـن فكـرة البطنين والأفضليـة السـلاليّة، فاهتمـت بالتعليـم اهتمامـا بالغـا، وعززتـه بالأوقـاف، إلا أن الإمامين أحمـد بـن سـليمان وعبـدالله بـن حمـزة، قـد قَضَيـا عـلى هـذه الجماعـة، كـما قضيـا عـلى مدارسـها وفكرهـا ومـا تركتـه من أوقـاف ونقليـات أخـرى، وجعلتها أثـرًا بعـدَ عـين، عـلى حُرمـة مـال الوقـف، وانتقلـت ثقافة الأوقـاف إلى المناطـق التـي كانـت واقعـة تحـت سـيطرة الإمامـة الهادويـة، فخلّفـت طفـرة تعليميـة؛ لكنهـا لم تـدم، وصـار التعليـم يـؤرق ذهـن الإمامـة، إلى حـد أن بعضَهـم قـد صـادرَ أراضي الأوقـاف لمصالحـه الشـخصية، عـلى هيبـة أمـوال الوقـف وقداسـتها في ثقافـة المجتمـع؛ وتذكـر

المراجعُ التَّارِيْخِيَّةُ المعاصرةُ أن الإمَامَ المهدي عباس كان جشعًا في شِراء الأراضي، حتى انتهى به الأمرُ إلى شِراء الأوقاف من الأمْوال وإخراجِها عن الوقفيَّة العَامَّة إلى الملكيَّة الخاصَّة، إضَافة إلى النقل والمعاوضَة بين أمْلاكه الخاصَّة وأملاك الأوقاف في ضواحي صنعاء، كمنطقة شُعوب والصافية وبئر العزب ومناطق أخرى، علما أن مال الوقف محرمٌ لا يجوز نقله ولا اسْتبداله ولا المعاوضَة فيه، كما أشَار إلى ذلك العلامة ابن الأمير في رسَالَةٍ إلى الإمَام المهدي في ذي الحجَّة ١١٨٠هـ، ناصحًا إياه بالابتعاد عن ذلك، كما نصحه آخرون، لم يقبل نصيحتَهم؛ بل عاقبَهم وسَجنهم وصَادرَ أموالهم، كما حدث مع أحدِ أقرب رجالاته ووزيره القاضي العلامة يحيى بن صالح السحولي.

وفي واحدةٍ من الحماقاتِ التاريخيَّة، وسِيَاسَة الهمجيَّةِ والحقد التي اتَّبعها هَؤلاء أن عمدَ الإمَامُ يحيى حميد الدين عام ١٩٢٨م، إلى مُصادرة الوقف على أكبر مَدرسَة دينيَّة، عُرفت بجامعة الأشاعرة، كانت تُدرِّسُ مختلفَ فنون العلم، في زبيد بتهامة. ولمدينة زبيد شهرتُها العِلمِيَّة التي تجاوزتْ المحليَّة إلى القُطرية، وتوافد عَلَيْها آلاف المُريدين على ما يزيد عن ثمانمئة عام، وتخرج منها آلاف العُلماء في مختلف المجالات، ولم يبق بعد تلك المُصَادرة، إلا المدارسُ الصغيرةُ، والكتاتيبُ الأولية؛ وتبع ذلك مصادرة العديد من أموال الأوقاف وإغلاق المدارسِ في أكثرِ من مكان.

وظلت أوقافُ التعليم قائمة إلى اليوم كثقافة عامة عند كثير

من أبناء المجتمع اليمني، على الرغم من الجنايات التي تلحقُها من قبل بعض النافذين من السيطرة عليها ومصادرتها.

المنطلق الثالث: منطلق اجتماعي، وينطلق بعضه من البُعد الإنساني الخالص، التي تدخل في دائرة الضروريات أو الحاجيات بحسب اصطلاح الفقه الإسلامي، إضافة إلى أنواع أخرى من الوقف تدخل فيما يعرف بدائرة التحسينات. وتذكر المصادرُ التاريخية أن أنواع الوقف في اليمن تجاوزت ثمانين نوعًا، منها: أوقاف الخُمُر العرجاء، والقطط الشاردة، وحَمَام الحَرم، وقيادة الأعمى، وعطر العيد، وأوقاف تخص تعويضات عن الآنية التي يكسرها العبيد، فلا يوبخهم سادتُهم أو مُلاكُهم.

والناظر في فلسفة هذه الثقافة يجدها تنطلق من بُعدٍ إنساني خالص، وبعضها من بُعدٍ جَمالي، تحسيني؛ بل لقد انطلقت بعضُها من الاهتمام بحقوق الحيوان، كما رأينا.

لقد مثلت الأوقافُ قديما دورَ منظمات المجتمع المدني والجمعيات الخيرية اليومَ وأكثر، بكل رُقي وتقدم، واستطاعت أن تفتقَ الثلمات التي تركتها الدولة، أو السلطات الرسمية القائمة آنذاك، خاصة حين كانت الإمامة تحاربُ التعليم، فعمد الناسُ إلى تأسيس مدارس العلم ورعايتها والوقف عليها، ومنها تخرج علماء وفقهاء وأطباء وساسة، ولا تزال هذه الأوقاف ثقافة قائمة إلى اليوم في العمق الاجتماعي اليمني.

* * *

في طريق البخور

"طريق البخور» من أهم الروايات التاريخية التي كتبها الروائي والأديب اليمني منير طلال، موثقا لواحد من أهم الأحداث التاريخية في الجزيرة العربية في التاريخ الوسيط. في سبيل تأكيد الكاتب على أن الروح العربية واحدة، سواء لدى ما عُرف بعرب الشمال أو عرب الجنوب، فكلهم إخوة وبنو عم، تجمعهم الروح القومية العربية الواحدة، وتجمعُهم صلة القرابة وعوامل مشتركة أخرى. مشيرًا إلى أن الغربَ قد أرخ لأحداث تلك الفترة من وجهة نظره هو، فيما نحن لا نزال معتمدين على ما كتبوه هم لنا، وهذا خطأ بكل المقاييس؛ بل لا بد من تصحيح المفاهيم التي تعمّد المؤرخون الرومان دمغ العرب بها.

يقول الكاتب عن الرواية: فكرة تأليف رواية طريق البخور عندما كنت طالبا في قسم التاريخ بكلية الآداب، عندما درسنا تاريخ العرب القديم؛ حيث قدم لنا الكتاب المقرر لمحة بسيطة عن الحملة الرومانية على جنوب الجزيرة العربية في عهد الإمبراطور الروماني «أغسطس أوكتافيوس» الذي أمرَ والي مصر «يوليوس جاليوس» لترتيب حملة عسكرية لاحتلال جنوب الجزيرة وإخضاع ممالكها للحكم الروماني، وذلك في إطار التوسع الإمبراطوري الذي كان يميز الدولة الرومانية التي كانت في حينه أكبرَ دولة في العالم القديم، وللسيطرة على مقدرات الأمم

والشعوب الأخرى.

لقد كانت طريق البخور أو اللبان من أهم المغريات للسيطرة على منطقة الجنوب العربي؛ حيث عائدات تلك التجارة المتدفقة من موانئ ظفار وقنا باتجاه الشمال العربي، ومنها إلى أوروبا تكاد تكون عالية جدا، نظرًا لاستخدام اللبان في المعابد الدينية للديانات القديمة، سواء في الشرق العربي أم في معابد أوروبا، وكانت عائداتُ تلك التجارة تذهب في معظمها لصالح العرب في ممالك سبأ وذي ريدان وحضرموت وقتبان وأوسان والأنباط، ولهذا فقد سعى الرومان ومن قبلهم الإغريق في عهد الاسكندر إلى السيطرة على طريق البخور واحتلال مناطق إنتاج اللبان في ظفار والمهرة وسقطرى.

* نص رسالة الإسكندر لمعلمه عن إسرافه في اللبان

ويضيف الكاتب: أما الذي استفزني في موضوع تأليف هذه الرواية هو الانتصاف لوزير دولة عرب الأنباط، المدعو «صالح» والذي جاء اسمه في المصادر الإغريقية والرومانية باسم «سليأوس»، الذي كان في زيارة لمصر، وطلب منه الرومان أن يكون دليلهم في حملتهم للسيطرة على الجنوب العربي، وكيف أن استرابون المؤرخ الإغريقي الذي اصطحب الحملة حمّله المسؤولية في هزيمة الرومان والقضاء على معظم جيشهم عندما خدعهم وأقنعهم بأن يتجه جيشهم إلى ميناء لوكي كومي «ينبع حاليا»،

ومن هناك يتجه جنوبًا لإخضاع كل الممالك العربية الواحدة تلو الأخرى، ليصرفهم عن خطتهم الأساسية القائمة على توجه أسطول بحري، مكون من ١٢٠ سفينة إلى ميناء فرموزا «قرب المخا» ومن هناك يُخضعون الممالك الجنوبية حيث كانوا قد بنوا السفن؛ لكن يوليوس جاليوس وقع في الفخ الذي نصبه له وزير عرب الأنباط، واتجهت الحملة إلى لوكي كومي؛ حيث قام صالح بتضليل الجيش الروماني عبر الفيافي والقفار، ليتعرضوا لهجمات القبائل العربية وحر الصحراء والأوبئة ونقص المياه، ليهلك نصفُ الجيش الروماني، ولم يكن لهم سوى انتصاراتٍ سقيمة في نجران ونشق وبراقش؛ حيث نلاحظ بأن استرابون كان يبرر مقتل وإصابة الجنود الرومان بأنه ناتج عن الأوبئة؛ متجاهلا المقاومة العربية في صد العدوان، كما أنه نعت وزير عرب الأنباط بالخائن؛ لأنه انحازَ إلى قومه العرب وتآمر لصالحهم، فهلك أغلبُ ذلك الجيش، ليصل بعد نحو ٦ أشهر إلى أمام مدينة مارب ويحاصرها وعندما يأسر يوليوس جاليوس عددا من الأسرى العرب يعرف منهم أنه أصبح على بعد أيام قليلة من مناطق إنتاج اللبان؛ لكنه لهول ما تعرض له من هزائم ذهبت بأغلب جيشه يقرر الانسحاب، وعند عودته يكتشف بأن «صالح» قد غدر به، وبأن المسافة ما بين مأرب وغزة تقطعها القوافل في أقل من شهرين، وبأن صالح كان السبب في فشل تلك الحملة وهلاك معظم أفرادها فيحقد عليه.

ويضيف الكاتب منير طلال أيضا: لعل ما استفزني في جانب الحملة الرومانية هو قلة المعلومات التي لا تزيد عن صفحة أو صفحتين في أغلب المراجع، وبأن أسلوب التلقين المُمارس في الجامعة، والذي يصر على إطلاق لفظ خائن على «صالح»، كما جاء في رواية استرابون، لأسباب فشل الحملة وتجاهل الدور الوطني لهذا الرجل العظيم، وإهمال البحث عن الأسباب والدوافع لمعرفة سبب ما قام به، خاصة وأنني حصلت على ترجمة لنقش روماني يقول بأنه تم استدراج صالح كرسول إلى روما، وهناك تم قطع رأسه وتقديمه على طبق من فضة للإمبراطور الروماني أغسطس أوكتافيوس.

إن دوافع صالح الذي يمثلُ عربَ الشمال كانت ولابد معروفة، فهو رجلٌ يؤمنُ باستقلال البلاد العربية، وكان ناقمًا على خضوع بلاده للحكم الروماني، وقد دخل في صراعاتٍ داخل مملكة الأنباط مع المؤيدين للرومان، وعلى رأسهم شخص يُدعى «هيرودوت»، في ظل ملك يتسم بالضعف والخوف من القوة الرومانية، يُدعى: «عبادة الثاني»، ولهذا فقد حمل صالح على عاتقه مسؤولية القضاء على الحملة الرومانية بإهلاكهم؛ مستعينا بالتضاريس العربية القاسية في الصحراء القاحلة، خاصة وأن جيوش الرومان اعتادت القتال والتحرك في ظروف مناخيّة مناسبة، لا تعرف حر الصحراء.

لقد حاول الروائي منير طلال إعادة الاعتبار لهذا البطل

القومي، وإبراز أمجاد العرب القديمة ووحدتهم الحضارية، مقدمًا إضافاتٍ عن حضارات عرب الفينيقيين والكنعانيين والتطور المعرفي لديهم، وكيف كانوا أصحاب فضل على الحضارات الأخرى، كالإغريق الذين أخذوا أبجديتهم من الفينيقيين ــ وكان علماءُ الإغريق يدرسون في المدن الفينيقية والكنعانية والفرعونية ــ وعن إسهام العرب في الحضارة الإنسانية.

كما قدمت الرواية لمحة عن مدى التطور في بنية الحضارة العربية، حتى أن الحكم كان ديمقراطيا شُورويًّا، لوجود المجالس التشريعية في معظم الدول العربية، كمجالس المئة والشيوخ عند الفينيقيين، والمسود عند حضارات الجنوب العربي؛ بل إن بعض حكامها كانوا يُنتخبون انتخابا.

باختصار فإن رواية «طريق البخور» تهدفُ إلى تعزيز وتأكيد الروح العربية/ العروبية بين عرب الشمال وإخوانهم من عرب الجنوب، وبأن ما قام به وزير عرب الأنباط لا يقل شأنًا عما قامت به القبائلُ العربية في التصدي للفرس في «يوم ذي قار»، فهو يحملُ عناصر الوفاء والحب والانتماء للأرض العربية والتصدي للعدوان الأجنبي بكل بسالة وشجاعة.

ودعا الكاتب طلال الجهات الأكاديمية لإعادة الاعتبار لوزير عرب الأنباط، وتصحيح تلك العبارة التي تدعوه بالخائن دون النظر إلى دوره البطولي في القضاء على تلك الحملة.

لقد تضمنت الرواية العديد من الأحداث التي تهدف إلى

كشف أهداف المحتلين والغزاة عبر العصور، وبأن انتصارَ العرب يعودُ إلى تمسكهم بقيمهم العربية الأصيلة وروح الإيثار والحرية والعدالة؛ لأن الشعوبَ المقهورة لا تستطيع الانتصار على أعدائها.

* * *

في رحاب الزعيمين

ثمّة صادقون في نضالهم؛ لكن لصدق الزعيمين: أبي الأحرار الشهيد محمد محمود الزبيري ورفيقه الأستاذ أحمد محمد نعمان مذاقا خاصا، وثمة أحرار في مواقفهم؛ لكن لحرية الزعيمين نكهتَها الخاصة، وثمة رجالُ مواقف كثر، لكن مواقف الزعيمين مختلفة، ومتميزة، ومدهشة..!

مواقف بطولية خالدة، خلدتها روحا الزعيمين فكرا وسلوكا، بالقلم والبندقية، بالقصيدة، بالخطابة، بالرواية، بالمقالة، وقبل كل ذلك بروح وطنية عتيدة، تنتمي لضمير الشعب، وقد اختزلت روح الأمة.

وما حملتُ يراعي خالقًا بيدي إلا ليصنع أجيالا وأوطانا
يخاله الملك السفاح مقصلة في عنقه ويراه الشعب ميزانا

سلكا معا طريق السلم في البداية، ثم طريق النصح، فالمعارضة اللطيفة، فالمعارضة الصارخة، وصولا إلى التثوير، بعد رحلة طويلة من التنوير.

قصائد الزبيري الشعرية ومقالات نعمان الصحفية كانا مشعلا التنوير والتثوير معا، من الهمسة الأولى في أربعينيات القرن الماضي، إلى الصيحة الأخيرة في ساعة الصفر لثورة السادس والعشرين من سبتمبر. مع رفاقهما الأبرار، من خيرة رجالات

الوطن، وهم كثر، علي عبدالمغني، جزيلان، عبدالغني مطهر، العمري، العواضي، والقائمة تطول.

التقى الزعيمان، وكل همّهما وطن. التقيا يحملان هموم الشعب. نعمان بخلفيته المشيخية وفكره الصوفي «العلواني»، والزبيري بخلفيته القضائية وفكره التجديدي «الشوكاني»، ولابن علوان والشوكاني معا صولات وجولات مع أحداث عصر كل منهما. وسارا في مسار اليمن الواحد والكبير..

جمع آل نعمان بين المشيخة القبلية والسياسة، كما تميزوا بسعة الثقافة والتضلع في الأدب والشعر، على نحو نادر، من بين أغلب المشيخات، ما جعلهم قريبين من جميع الناس؛ أي أنها مشيخة مستنيرة، مثقفة، سياسية، لا كتلك المشيخات التقليدية التي عُرفت بها بعض المناطق التي يمثل الشيخ فيها إماما آخر..!

وقد كان لهذه الأسرة ــ ولا يزال ــ ميولات صوفية مكتسبة، توارثوها عن الآباء والأجداد، كما هو الشأن مع أغلب الأسر في تلك المنطقة وغيرها من مناطق اليمن التي تأثرت بصوفية الدولة الرسولية، بما تكتنزه الصوفية من القيم الإنسانية والأخلاقية النادرة. وهي قيمٌ عززت في الناس الزهد في جانبه الإيجابي، كما عززت فيهم روح المقاومة والكفاح للظلم، لأن المتفاني روحيا في الذات العلية لا يستسيغ عبودية البشر مهما كان. روح الصوفي تصمدُ بشموخ في مقاومة أعاصير الحياة.

منذ البواكير الأولى لنضال اليمنيين ناوءت مشيخة آل نعمان

بالحجرية طغيانَ الإمامة، إلى حد أنه ما ذكر النضال اليمني إلا وتبادر إلى الذهن مباشرة اسم الأستاذ نعمان، مقرونا بنجله محمد، وبالشيخ المناضل أمين عبدالواسع نعمان الذي لعب أدوارا بطولية نضالية، لم يُكتب عنها حتى الآن.

وجمع الزبيري ـ على نحو نادر ـ بين ثقافة وفكر إمام اليمن أبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني، فنشوان الحميري، فالفقيه المجدد الإمام محمد بن علي الشوكاني، غيرهم من الرواد الأوائل الذين تأثر بهم الزبيري في مراحل تكوينه الأولى.

شكلت هاتان الثقافتان عضادة فكرية وسياسية في مسيرة النضال الوطني التي تشكلت من كل ربوع اليمن، بإلهام نعماني زبيري نادر، لا يزال إلى اللحظة يحتل زخم المكان والزمان.

من أجل الهدف الكبير أنكرا ذاتيهما الشخصية، متنصرَين للذات الوطنية الكبرى، يعيشان حياة البؤس والحرمان، وبين يديهما المال الذي كان يأتيهم من المتبرعين؛ لكنه مال القضية، ومال المشروع الكبير. يقول الأستاذ نعمان في مذكراته: «قد أتضورُ جوعًا، لكيلا أنفق أي مبلغ إلا في سبيل القضية، في طباعة، في نشر، في برقيات، في مذكرات، لمن يعمل «في مقابل عمله»، وأنا مع أولادي نعيش في عدن كأبأسِ المخلوقين. وكان الزبيري يعرفُ الحقيقة ويشاركنا هذا".

إلى جانب هذا أيضًا حصافة الأستاذ نعمان ونباهته وحذره الشديد، وهي ميزة السياسي النبيه؛ إذ ظل طوال هذه السنوات

محتفظا بسرية التبرعات المالية التي تصل لصالح القضية، ولم يُطلع عليها أحدًا غير الزبيري فقط، لثقته المطلقة به، رغم المطالبات المستمرة التي تتناوشُه بالكشف عن مصدر الأموال التي يتحصل عليها، لمعرفته أن ثمة ذئابًا في ثياب الحُملان، وأنه إذا كان البعضُ صادقًا في هذه المطالبة، فثمة آخرون متربصون، يكيدون له ولرفيقه وللرجال المخلصين أيضا المكائد، ويبحثون عن كل شاردة وواردة، ليبلغوا بها ولي العهد، السيف أحمد، متظاهرين بالوطنية وبموالاة الأحرار، فظل وفيًا، محافظا على السر، متحمّلا الأذى والاتهام من الأصدقاء قبل الأعداء. أضف إلى ذلك ما كان من الدروس السابقة من الأخطاء التي كان قد وقعت فيها هيئة النضال وجمعية الإصلاح، وكلتاهما تعرضتا لعيون الجواسيس وآذانهم، كما أن رجالها قد أُلقي عليهم القبض، وأُودِعوا سجون الإمام، بسبب عدم نباهة قيادة الجماعتين. والعاقل من اتعظ بغيره، كما يُقال.

لقد كان الزبيري رحمه الله نافخ الروح الثورية في وجدان وأحاسيس الشعب اليمني، وكأنه حادي القوم في مسراهم؛ لذا ظلت روحه سارية في جسد الشعب إلى اليوم علما خالدا مخلدا في الذاكرة الشعبية، ومنه يستلهم الأبطال اليوم نضالاتهم ومكافحتهم داء الإمامة الوبيل. صحيح أن الإمامة قتلته، وهو في أوج عطائه ينازلهم العداء، أو قل قضت عليه جسدا؛ لكنها خلدته روحًا قائمة إلى يوم القيامة، قتلوا زبيريا واحدا، فخلق

الشعب ألف زبيري، هاهم اليوم قد تسلموا منه راية النضال وبيارق النصر، في كل أنحاء اليمن، وهاهم اليوم يواصلون المسير بروح زبيرية عاتية، تقض مضاجع الكهنة في عقر دارهم. فمن انتمى للشعوب هيهات أن تنساه، ومن اختار الانحياز لقضايا الأمة، ومطالب الشعب فلن تنساه الأمة، ولن يتلاشى من ذاكرة الشعب، وسيظل كذلك في وجدان وروح كل جيل قادم؛ ذلك أن روحَ الزبيري تلاقحت مع روح الشعب، فكان ذلك الشُّعور المتبادل، وكان ذلك الوفاء لرجلٍ نذرَ حياته لقضية الوطن حتى لاقى ربه في جبهات النضال يلمِّلم أحشاءه مرددا:

بحثت عن هبة أحبوك يا وطني

فلم أجد لك إلا قلبي الدامي

* * *

سبتمبر وأكتوبر جناحا اليمن الكبير

للشعوب والأوطان تحولاتها التاريخية الكبيرة التي تتم من خلالِ محطاتٍ فارقة في حياتها، هذه المحطات هي في مجملها من صناعة الشعوب نفسها، عبر نخبتها الطليعية التي تمثل رأس حربة التغيير والتحول.

وفي اليمن تعتبر ثورتها ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م في شمال الوطن، وثورة ١٤ أكتوبر ١٩٦٣م في جنوبه محطتين فارقتين في حياة الشعب الواحد الذي وقع بين نيري: الاستبداد الإمامي في الشمال والاحتلال البريطاني في الجنوبي، فكانا شمالا «معتلا» وجنوبا «محتلا» بحسب تعبير الزعيم المناضل أحمد محمد نعمان.

كانت أولا ثورة ٢٦ سبتمبر الانفجار الأعظم، والتتويج الأكبر لنضالات اليمنيين ضد سلالة الكهنوت الإمامي البغيض، وكانت خاتمة لثورة ٤٨ وانقلاب ٥٥ وحركة ٥٩ وانتفاضة ٦١م في القرن العشرين، ناهيك عما سبقها من انتفاضات وتمردات أخرى على نظام الحكم الإمامي منذ العشرينيات، أو ثورات اليمنيين ضد الأئمة قبل ذلك التي مثلت لها منابعها الأساسية وروافدها الأولية التي سقتها وغذّتها. صحيح أن ثورة ٤٨ فشلت؛ لكنها فتحت كوة الضوء في جدار العتمة، وبعثت على التساؤلات الجدلية في أوساط العامة عن طبيعة الحكم ومقارنته إلى الأنظمة العربية الأخرى القائمة آنذاك، إضافة إلى أنها كسرت

الهالة الدينية التي كان الإمام يحاول صبغها على شخصه، بأنه ابن السماء، وأن الرصاص لا يخترق جسده، فلما اخترقت رصاصات القردعي جسده سرعان ما سقط زيف الدعاية الكاذب، ومن ثم بدأت نخبة صنعاء وذمار وإب وتعز والحديدة وعدن وحضرموت ولحج تتحدث في مجالسها الخاصة عن ظلم الإمامة وكهنوتها، وعن ضرورة الإصلاح السياسي، كما رفعت النخبة المستنيرة أصواتها عالية بضرورة تغيير نمط الحكم بكامله لا مجرد الإصلاح الذي يشبه الترقيع من وجهة نظرها، والأمر كذلك حقا. وشكل مذياع صوت العرب من القاهرة مدرسة في الوعي والتثقيف من بداية الخمسينيات حتى قامت الثورة. وعمق انقلاب ٥٥م بقيادة الثلايا تلك التساؤلات أكثر في أوساط الجيش والمتعاطفين معه، وإن فشل الانقلاب المستعجل وغير المدروس كما فشلت قبله ثورة ٤٨ الدستورية التي كانت منقطعة إلى حد كبير عن عامة الناس، مقتصرة على النخبة فقط. وجاءت حركة سعيد فارع عام ٥٩م ثم تمرد حاشد تعزيزا لجدليات عقد من الزمن، فبدأ صنم الإمامة يتهاوى، ليتطور الأمر بانتفاضة طلاب صنعاء الأكثر شجاعة وانطلاقا، بوعي جديد متشكل من ثقافة بيروت والقاهرة وبغداد ودمشق التي كانت قد تسربت عبر الصحف والمجلات والكتب إلى صنعاء، وكان أكثرها تأثيرا ثورة يوليو المصرية بثقافتها الجديدة وأصواتها الصاخبة.

هذا عن النبع الذي تدفقت منه، كخلفية ثقافية للحدث،

باعتبار الثورة في الفكر وفي الذهن قبل أن تكون في الواقع، وباعتبار الثورة قلما وكتابا قبل أن تكون مدفعا وبندقية؛ إذ الوعي بالثورة يسبق الثورة نفسها. فما المسارب التي تمشت فيها؟ والمصبات التي انسربت إليها؟

لكل ثورة أو حدث حامله الأساسي وقائده الذي يرفع شارة النصر، وكان تنظيم الضباط الأحرار مسنودا بالشعب هو مفجر نبع الثورة في فصلها الأول، مدعوما من جمهورية مصر العربية، لأن الجيش هو المؤسسة الوحيدة القائمة آنذاك، وفي صورته البدائية، فلا أحزاب سياسية، ولا منظمات مجتمع مدني، ولا جامعات ولا اتحادات ثقافية أو سياسية، الدولة أشبه بسوق شعبي يتحكم فيه الإمام. يقود الجند ويوزع أصواع البر والشعير على حد سواء، يقابل سفراء الدول وقادتها ويشرف بنفسه على شراء لجام البغلة التي يركبها. يقضي بين الناس، ثم يكتب التمائم والتعاويذ للمرضى، كما أشار إلى ذلك الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه «مغامرات مصري في مجاهل اليمن».. كل شيء بيد الإمام.! ومن دعاه لفكرة عصرية أو للإصلاح فالرد جاهز: تريدوننا أن نتشبه بالنصارى؟ إلى حد أن شراء أي مواطن لجهاز الراديو في عهد الإمام يحيى كان لا يتم إلا بإذن منه شخصيا، كما ذكر ذلك القاضي الإرياني في مذكراته..!

هبت رياح الثورة، فكان كل مواطن ثورة بذاته، عدا الجهلة من الأتباع في بعض مناطق الشمال الذين شكلوا ـ بجهلهم ـ

عقبة في طريق الثورة، تجاوزتها إرادة اليمنيين بعد ذلك؛ ولكن الثورة نجحت وعبرت بسلام، مسنودة بإرادة الجماهير ودعم الأشقاء من جمهورية مصر العربية بالدرجة الأولى.

هذا عن ثورة ٢٦ سبتمبر. فما ذا عن ثورة ١٤ أكتوبر؟

في الواقع تُعتبر ثورة ١٤ أكتوبر ١٩٦٣م امتدادًا طبيعيًا لثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢م؛ إذ لولا سبتمبر في الشمال لما كانت أكتوبر في الجنوب، كما تؤكد حقائق الأحداث آنذاك. نقول هذا ونحن نعرف أن بعضًا من رجالات الجنوب كانوا جزءًا من ثورة السادس والعشرين من سبتمبر، كما كان بعضٌ من رجالاتِ الشمال جزءا من ثورة أكتوبر. وهو ما يؤكد على واحدية الثورتين اللتين تُعتبران من صنيعةِ شعب واحد، بهوية واحدة، وإن كان بسلطتين اثنتين، ولا يزال بعض من رجالات الثورتين أحياء إلى اليوم، ويحكون تفاصيل هذا المشترك النضالي الأصيل.

ووفقا للبردوني: عندما أحست الجماهير في الشطرين فرار الإمام المخلوع من صنعاء عام ٦٢م تألبت الجماهير على ترسيخ العهد الجمهوري في الشمال، فأقبلت الجموع من عدن وتعز ومن يافع والبيضاء ومن لحج وخولان ومن دثينة والحديدة دون أن تحس من أين جاءت، وإنما تعرف إلى أين جاءت، فقد انخرطت كل الجماهير في سلك الحرس الوطني، فكونت جيش الثورة عام ٦٣م، وازداد هذا الجيش أفواجا إلى أفواج، فقاتل العدوان في

شمال الشمال، وأشعل فتيل الثورة في جنوب الوطن..إلخ.

ذكر اللواء علي عبدالله السلال، عضو مجلس الشورى، وهو نجل أول رئيس للجمهورية العربية اليمنية ما نصه: «إنه بعد أن قامت ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م هبّ إخواننا الجنوبيون لمناصرتنا من أول يوم، وقد قاتلوا تحت قيادتنا بخولان، حين كلفني الوالد بقيادة إحدى الجبهات هناك، لمواجهة الأمير الإمامي عبدالله بن الحسن، وحين اشتعلت ثورة ١٤ أكتوبر عام ٦٣م كان بعض من الأخوة الجنوبيين في جبال خولان معنا جنبا لجنب، فأرادوا الاستئذان والالتحاق بجبهاتهم في الجنوب مع أسلحتهم التي صُرفت لهم، ولم أوافق لهم، وحصلت مشادة قوية، فرفعنا الأمر على إثرها إلى قيادتنا السياسية ممثلة برئيس الجمهورية، فسمح لهم باصطحاب أسلحتهم وما يكفيهم من المؤنة لمواجهة المحتل في الجنوب. مضيفا: لا فرق بين شمال الوطن ولا جنوبه".

حين اندلعت شرارة ثورة الرابع عشر من أكتوبر ٦٣م كانت عدن حينها من المدن المفتوحة لليمنيين وغير اليمنيين، ومنذ اللحظات الأولى هبّ اليمنيون بمختلف توجهاتهم ومناطقهم للدفاع عنها، وكان أبناء تعز بدرجة رئيسية هم أكثر أبناء الشمال تواجدا في عدن، لكنهم لم يكونوا يرون أنفسهم إلا في مدينتهم ووطنهم الواحد.

كانت الثورتان المتقاربتان زمانا ومكانا، والمؤتلفتان أهدافا وغايات، والموحدتان بمعاناة واحدة نافذة الأمل الجديد، وكوة

الضوء المشرق لعهد جديدٍ يخطه اليمنيون، بصرف النظر عما حصل من نظام عدن عقب أحداث ٦٩م. أو ما حصل بين النظامين في ٧٢م، ثم ٧٩م. وكما كانت عدن ملجأ لمناضلي الشمال أيام الإمامة، فقد كانت صنعاء وتعز بدرجة أولى الملجأ الأول للفارين من بطش الاحتلال البريطاني في عدن؛ بل وحتى ملاذا للفارين جراء الخلافات المتفاقمة بين الرفاق المتشاكسين عقب ثورة اكتوبر وعقب الاستقلال.

وظلت الوحدة اليمنية حلم الجميع بلا استثناء في الشمال والجنوب، هزجت بها الأناشيد الوطنية والأغنيات الجماهيرية شمالا وجنوبا على حد سواء، وكان لها أكثر من محطة توقفت عندها حتى تكللت بوحدة عام ٩٠م.

كانت ثورة سبتمبر في الشمال الثورة الأم لثورة أكتوبر في الجنوب، أتت الأخيرة منها متأثرة بها، وبدعم الزعيم العربي جمال عبدالناصر الذي كان السند الأول لثورة ٢٦ سبتمبر، وخطابه التاريخي في تعز عام ٦٤م شاهد على موقفه التاريخي، وموقف مصر تجاه الشطر الجنوبي من الوطن. وعلى أية حال، ومهما اعترى العلاقة من توتر فلا يعدو أن يكون شغب الأخوين داخل البيت الواحد، خاصة مع التوجه الجديد لبناء اليمن الاتحادي الذي يعمل على تجاوز سلبيات الماضي ومآسيه بروح جديدة، بعد أن يتجاوز الشعب عنق الزجاجة التي يعيشها اليوم.

* * *

المملكة واليمن..
علائق التاريخ ووشائج الجغرافيا

ثمة علاقات بين الدول لها محدداتها السياسية وأطرها الرسمية التي تنظمها الأعراف الدبلوماسية، وثمة علاقات بين الشعوب التي تستعصي على التحديد أو التأطير أو ضبطها بإيقاع رسمي معين، ذلك أن تقاليد الأمم في مستواها الشعبي حاكمة على تقاليد الدول كمؤسسات وسيادة، بل إن تقاليد العلاقات الدبلوماسية في مستواها الهرمي والفوقي هي ـ في حقيقة الأمر ـ صدى لانعكاسات العلائق الشعبية وتبعٌ لها.

بين الولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك من التلاحم الشعبي ما استعصى على النظام الأمريكي نفسه فصله أو حتى تنظيمه، بحكم واحدية الشعبين، وإن اختلف النظامان سياسيا، فالهجرات غير المشروعة، والاغتراب غير المنظم إحدى الجدليات التي لم تستطع الولايات المتحدة الأمريكية ضبطها مع جارتها المكسيك، على الرغم من الفارق المهول جدا بين إمكانيات الولايات المتحدة الأمريكية من جهة والمكسيك من جهة أخرى. وذات الشأن أيضا مع أغلب دول الاتحاد الأوروبي التي تنزع إلى أرومة بشرية متقاربة، وكما تمثل المكسيك عامل قلق للولايات المتحدة الأمريكية كذلك تمثل اليونان حالة قلق لجنوب أوروبا،

لـذا فشـل بنـاء الجـدار العـازل بـين بـين أمريـكا والمكسـيك، كـما فشـلت دعـوات المتطرفـين في أوروبـا لعـزل اليونـان عنهـا؛ بـل إن الدعـم الأوروبي لليونـان يصـل إلى مليـارات الـدولارات سـنويا.

وقريبًا مـن النموذجين المذكوريـن آنفًا النمـور الأسـيوية الأربعـة « تايـوان، سـنغافورة، هونـغ كونـغ وكوريـا الجنوبيـة» التـي وصلـت فيـما بعـد إلى مـا عـرف بالنمـور السـبعة وقـد أضيـف إليهـا: ماليزيـا – اندونيسـيا – الفلبـين. وجميعهـا نهضـت بمسـاعدة الصـين واليابـان، وإن كان اهتـمام اليابـان بهـا أكثـر، ذلـك أن هـذه النمـور السـبعة أمـة واحـدة، وشـعب واحـد تعـددت دولـه وأنظمتـه، وبالتـالي تنظـر لهـا اليابـان المتقدمـة صناعيـا ومعرفيـا كـما ينظـر الأخ الأكـبر إلى أشـقائه الصغـار منـذ مطلـع تسـعينيات القـرن المـاضي، بـصرف النظـر عـن بعـض مـا قـد يطـرأ عـلى سـطح السياسـة أحيانـا مـن نتـوءات تعـود لتكتيـك اللحظـة بـين هـذه الـدول إلا أن شـعبويات هـذه الـدول هـي الأكثـر فاعليـة، والأكثـر ترابطـا، وفـوق أن تؤثـر عليهـا خلافـات السياسـة الطارئـة.

إن الامتـداد التاريخـي للشـعب الواحـد والجغرافيـا الواحـدة وإن تعـددت أنظمتـه السياسـية يبقـي عـلى حالـة الـود كامنـة في لاوعـي الشـعوب، مهـما اشـتدت أعاصـير السياسـة أو اضطـرم أوراهـا.

ومـن نافلـة القـول هنـا ــ وبعـد هـذا الاسـتعراض السريع ــ نقول: إن الجزيـرة العربيـة كلهـا وحـدة جغرافيـة وتاريخيـة واحـدة موحـدة عـبر التاريـخ، بـصرف النظـر عـن الفروقـات اليسـيرة أو الشـكلية

بين هذا القُطر أو ذاك، وهي فوارق سطحية تؤكد واحدية التاريخ والجغرافيا والانتماء والمصير المشترك؛ ذلك أن على أديم هذه المنطقة تشكلت أولى الحضارات الإنسانية، ومنها عَبَرت إلى بقية بقاع المعمورة، وعليها أيضا تشكلت حضارة الإسلام التي امتدت أيضا إلى أجزاء كبيرة من شرق الأرض وغربها، ومثّل الجميع عائلة واحدة أمام الغير، فكانوا القادة الفاتحين، وكانوا حَمَلة العلم والدين معًا.

هذا عن الجزيرة العربية كلها، أما عن اليمن والمملكة العربية السعودية ففيهما من التداخل الجغرافي والمشترك التاريخي والعلائق الاجتماعية والأنساق الثقافية المشتركات الكثيرة والتي يزيدها الزمن رسوخا وثباتا، مهما كانت بعض التشوهات أو الثلمَات الطارئة أحيانا؛ ومن هنا يتأتى الموقف التاريخي للمملكة العربية السعودية تجاه اليمن في مواجهة المشروع الإيراني الخميني الذي تنتشر أذرعُه الخبيثة في كثير من أرجاء المنطقة، للسيطرة عليها، والحقيقة أنه لولا موقف المملكة العربية السعودية الحازم تجاه المشروع الإيراني في المنطقة لكان الأمر أكثر سوءا مما عليه اليوم، لا في اليمن فحسب؛ بل في كثير من أرجاء المنطقة بِرُمتها.

* * *

مع البردوني في اليمن الجمهوري

"اليمن الجمهوري» هو كتابُ تاريخ سياسي من تأليف الكاتب والشاعر اليمني عبد الله البردوني. صَدَر الكتاب عام ١٩٨٣ ويتكون من أحد عشر فصلا، إلى جانب المقدمة، يناقشُ فيه المؤلفُ تاريخ اليمن السياسي بدايةً بأحداث ما قبل ثورة الدستور في عام ١٩٤٨م، وحتى قيام الجمهورية في ستينات القرن العشرين. ويختتم الكتاب بتحليل مشاكل واضطرابات النظام الجمهوري في اليمن. ويكاد هذا الكتاب يكون هو المرجع الأول والأكمل والأشمل في موضوعه، وأيضا الأكثر ثقة ومصداقية وتحريا، ذلك أن مؤلفه قد جمع بين غزارة المعلومة وعمق التحليل مع النظر الفلسفي.

في الفصل الأول الخطوط الجدلية، تناول فيه البدايات الأولى لثورة ١٩٤٨م من الفكرة إلى النضال إلى الثورة الفعل التي تفجرت بعد مخاضاتٍ عدة لسنوات طويلة، اتفق فيها المختلفون، واختلف فيها المتفقون، خاصة بعد أن تميز عقد الأربعينيات كما يقول بعنف الحيوية الأدبية في المدائن الكبرى، ولا سيما عدن وصنعاء، فأصبحت صناعة الأدب وروايته وتذوقه علامة ثورية، وزينة اجتماعية، وبرهانا على المعاصرة. كانت مُعززة للثقافة الفقهية أو معادلة لها، لهذا اندلعت الانتفاضات ولعل أشهرها انتفاضة المقاطرة في تعز، وكانت قلعة المقاطرة أسبق من حصن

شهارة في صراع الأتراك وأعوانهم، وكانت انتصاراتُهم على الجيش التركي ذائعة الصيت؛ لأن قائد نضال شهارة كان يتراوح بين المفاوضة وبين المقاومة، وكان يقبل الاحتلال إذا أتاح له المحتل التولي على الزكوات والأوقاف بدون فرض زيادات في الضرائب السنوية المتفق عليها؛ أما المقاطرة بزعامة آل علي سعد فانتهجت النضال بلا مساومة؛ لذلك حشدت السلطة الإمامية أشد القوى لإخماد تمرد المقاطرة عام ١٩٢٢م، بالإضافة إلى الدعايات المكثفة بأنها حركة إنجليزية، تستهدف القضاء على الإسلام. وفي نظر البردوني فإن انتفاضة المقاطرة وطنيّة من جملة الانتفاضات التي تأججت في العشرينيات والثلاثينيات، كانتفاضة حاشد والزرانيق وحركة الدباغ والرّصّاص، فهي عمل وطني يلحق بالحركات التي طمحت عن إرادة غامضة، وكانت دليلا للحركات الهادفة وللتطور التاريخي الذي تخلفه حيوية الأحداث وبُعد نظرها إلى المستقبل، فكل ما تفجر من حدث خصّبَ حيوية الإرادة، واستبقى معالم الجرأة في جماهيرنا، لكي تتلاحقَ مواكبُ التحرك الخلاق تحت مبدأ: الكل للشعب، والشعب لكل غاياته العليا.

بعد أحداث المقاطرة كانت أيضا انتفاضة الزرانيق التي كانت ضد الإقطاع وضد الإمامة، وكانت أعتى معركة خاضها الحكمُ الإمامي بعد معركة المقاطرة.

وفي فصل تالٍ تحدث البردوني عن التحولات في الشطر الجنوبي وأشباهها في الشطر الشمالي، ذلك أن واحدية اليمن لا تمنع من

وجود ملامح اختلاف في صور الأحداث وفي منابعها ومصبّاتها، وذلك لاختلاف الوضعين سياسيا، ولبعض الاختلاف في أنماط الثقافة، إذ كانت الثقافة المعاصرة أوفرَ في عاصمة الشطر الجنوبي من مطلع الثلاثينيات إلى بدء الستينيات، على حين كانت الثقافة التراثية بجوانبها الفقهية والفكرية والأدبية أغلب على الساحة في مدائن الشطر الشمالي من مطلع العشرينيات إلى منتصف الخمسينيات، فما أدى من تشابه في أحداث الشطرين فمرده إلى اختلاف الوسائل والأغراض، بسحب تعبير المؤلف.

وفي تقييم التجربة التاريخية في اليمن يقول المؤلف: لقد اتقدت بلادُنا بالصراع السياسي على امتداد تاريخها، ولم يصل تيار الصّراع إلى غاية اجتماعية، لأنه لم يتنظر بأيديولوجية اجتماعية، ولم ينطلق من قاعدة تنظيمية، وإنما كان صراعا قبليا، يتأجج لكي يخمد، ويخمد لكي يتأجج أعنف. مضيفا في سياق آخر: ليست كل حركة هي شعبية، لأنّ اصطراعَ البُنى الفوقية والتي تليها طبقيا تعبر عنها أكثر مما تعبر عن الشعب، فمجرد إبدال ملك بملك أو سيء بمثله لا يدخلُ في حساب الشعب، وإن كان محسوبا عليه كتضحية ومضحي، ولعل أغلبَ الحركات اليمنية إلى سبتمبر ١٩٦٢م تتسم بالصراع الفوقي بين أنداد من طبقة عليا أو ما يتصل بها، غير أن هذه الحركات قد خلقت جوا قابلا لإبدال لون بلون، ووجوه بوجوه، حتى أدت التحولاتُ إلى اصطراع الشعب مع سلطات القهر ومع نفسه التي قبلت القهر.

ويتحدث المؤلف في تقييم تاريخي عن الدور الطلابي الذي رافق حركة التحرر الوطني، فقد كان شبابنا الطلابي من مطلع الأربعينيات مختلفا عن شباب العشرينيات والثلاثينيات التي كانت أهم صفاته عدم التدخل فيما لا يعنيه على حد تعبير الآباء والأساتذة، لأنهم أحسوا أنفسهم معنيين بالوطن، بتأثير بواكير الثقافة المعاصرة، فبدؤوا بخوض عدة ميادين نضالية، كانوا يوزعون المنشورات الوافدة من عدن، ويواصلون الدراسة، ويتلمسون آثار دعوة الثورة الدستورية في مجاميع القات والأسواق، وكان أشق عمل يمارسونه هو حملُ الرسائل الداعية إلى الحركة الدستورية، من صنعاء إلى تعز إلى مراد إلى إب إلى بعدان إلى زبيد، وكانت الحمير والأقدام هي وسائل المواصلات في ذلك الحين.

لقد كان طلابُ دارِ العلوم والثانوية أصدقَ جنود ثورة ٤٨م وأحسهم تقبلا لها وتوعية عنها، إلا أن طلاب تلك الفترة لم يُشكلوا جمهورًا عريضًا، فلا يتجاوز طلاب الثانوية مئتي طالب، ولا يتجاوز طلاب دار العلوم ثلاثمئة طالب. ومهما كانت المآخذ على الجماعة الطلابية في ثورة الدستور فإنها كانت أروعَ ظواهر ثورة ١٩٤٨م، صحيح أن منهجَهم الطلابي في الثانوية لا يصل إلى مستوى إعدادي اليوم إلا أنه كان لا يخلو من معاصرة بفضل استنارة الأساتذة من أمثال: أحمد الحورش وأحمد البراق، وبعض أفراد البعثات التعليمية من مصر وسوريا وفلسطين،

وقد كانت الثانوية تتأجج بالحماس الأناشيدي على انخفاض مستواها الدراسي، وكانت الأناشيدُ القومية أبهى جمرات حسها الثوري، وكانت هذه الأناشيد وبعض المحفوظات الشعرية هي الزاد الثقافي المختلف لطلاب الثانوية والمتوسطة؛ أما طلاب دار العلوم فإنها كانت تتنفس بردَ القبور ورتابة القواعد والأمثال، فلا يمكن أن يتمخض عنها حسٌّ مستقبليٌّ؛ لأنها كانت معلبة من مئات السنين بدون تأليف جديد يضيف إليها ويمدُّ تطورها؛ لأن منهج دار العلوم كان مجرد حفظ مسائل جاهزة في العبادات والمعاملات، وكان طلابُ دار العلوم يرددون قصائد عدة ألهبت حماسهم الثوري كقصيدة الشاعر العربي محمد الأسمر، ومنها:

إنما الناس من تراب وماء ... ليس فيهم من أصله من ضياء
آدم والد الجميع فحمق ... وضلال تفاخر الأبناء
أمنا الأرض أنبتتنا جميعا ... ليس فينا من ينتمي للسماء
ليس شعب من الشعوب بعبد ... لا، ولا أمة ببعض الإماء
لم أجد في الحياة مثل المساواة ... أساسا لكل باني بناء
هام موسى الكليم يبحث عنها ... غاضبا ساخطا على الكبرياء
والمسيح الكريم نادى إليها ... مخلصا صابرا على الإيذاء
ثم وافى بها كما أشرق الصبح ... على الكون خاتم الأنبياء
أيها الناس والجميع سواء ... فيم عسف القوي بالضعفاء
من بنى ملكه على الظلم والغي ... بنى ما بناه فوق الهواء

قل لمن يدعون فضلا على الناس أرونا فضائل الفضلاء
إن يكن فضل الإله أناسا فأولوا الفضل معشر الحكماء

أما عن الخطوط التي تفجر منها سبتمبر فقد كانت كل الأحداث السابقة له تمهيدا له، وكانت ثورة ٢٦ سبتمبر الإكليل الجامع لكل نضالات اليمنيين منذ مئات السنين. وقد أصبح الشعبُ كله ثائرًا، لا النخبة السياسية أو الثقافية فقط، كما كان الأمر عليه سابقا، فقام النظام الجمهوري وسقطت الإمامة، وإن تبعتها ثورة مضادة، لكن إرادة الشعب كانت غلابة على كل الثورات المضادة.

❊ ❊ ❊

مع الهمداني في إكليله

هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الأرحبي، البكيلي، من همدان، مؤرخ، عالم بالأنساب عارف بالفلك والفلسفة والأدب، شاعر مكثر، من أهل اليمن. كان يُعرف بابن الحائك، لحوكه الشعر، وبالنسابة، لتبحره في علم الأنساب، وبابن ذي الدمينة، نسبة إلى أحد أجداده: ذي الدمينة بن عمرو.

ولد بصنعاء سنة ٢٨٠هـ، وأقام على مقربة منها في بلدة ريدة، وطاف البلاد، واستقر بمكة يقرأ ويتاجر. وفي مكة اقتنى الكثير من الكتب، في الشعر والأنساب وفي المعرفة، وقد أكثر من النقل عن بطليموس.

تأثر كثيرًا بالكتب المترجمة عن اليونانية، والفارسية، والهندية؛ تأثرًا دفعه إلى الأخذ ببعض الآراء الواردة فيها، وإلى احترامه لأصحابها، فهو بعد أن يورد قول أرسطوطاليس الحكيم، عن مبتدأ الحرارة في جوف الأرض، يعقب عليه بقوله: «قد أحسن الحكيم، فيما فرَّع، وإن كان قد بنى قوله في مبتدأ الحرارة على غير أصلٍ»، ثم يسترسل في إيضاح ذلك. كذلك راسَلَ الهمداني العديدَ من علماء العراق وخالطهم، وقيل إنه سافر إلى العراق مع أبيه للتجارة، وعاد إلى اليمن، فأقام مع أهله في مدينة صعدة، فعارض الطبريين وأبناء يحيى حسين الرسي الذين جاؤوا

للاستيطان في بلاد اليمن، والاستحواذ على أهلها، بحجة أنهم من آل بيت النبي..!

يتألف الكتاب من عشرة أجزاء تجمع بين علوم الأخبار والآثار والأنساب واللغة. قال عنه علي بن يوسف القفطي في كتابه أنباء الرواة: هو كتاب جليلٌ وجميلٌ، غزير الوجود لم أرَ منه إلا أجزاء متفرقة وصلت إليَّ من اليمن.

قال عنه المؤرخ المصري فؤاد سيد، أمين دار الكتب المصرية، في الستينات: إنّ الإكليل بالنسبة لليمن هو كتاب مجدها وحضاراتها وتاريخها، وسجل أنسابها وقبائلها وشعوبها. وبالنسبة للعالم فهو أثر خالد من أثار التراث الإسلامي المجيد، وكنز حافل من كنوز المعرفة والعلم؛ لكن هذا السفر العظيم، في تاريخ اليمن والجزيرة العربية كلها، والذي يعتبر إنجيل الأمة اليمنية، تعرض لمؤامرة خبيثة من أعداء اليمن؛ بل وأعداء الإنسانية جمعاء، باعتبار التاريخ ملكا مشتركا للبشرية كلها، وقد ألف الهمداني جزءا كبيرًا منه وهو في سجن الإمامة مطلع القرن الرابع الهجري.

والإكليلُ عشرة أجزاء، فُقد منها ستة، ولم يبق إلا الأول والثاني، والثامن والعاشر. فيما الستة الأجزاء الأخرى مفقودة حتى اليوم على أهميتها، عدا ورقات قليلة من الجزء السادس أظهرها للوجود الدكتور مقبل التام عامر الأحمدي، وتُعتبر الأجزاء الموجودة اليوم بين أيدينا من أهم المصادر التاريخية

اليمنية التي بنى عليها اليمنيون دراساتهم وأبحاثهم، ولا غنى لباحث أو مؤلف عنها.

وقد قدم الهمداني خدمة جليلة لليمن ولأمته بالتعريف بالمَوَاطن التاريخية الأولى لقلم المسند الذي فك رموزه، وذكر محافد اليمن، قصورها وأسدادها وهياكلها وآثارها، ووصفها وصفًا شيقًا وعلى حقيقتها الماثلة لذلك التاريخ المُضمّخ بأمجاد تلك الحضارات، وأبرز ــ باعتزاز ــ طبيعة نظام الحكم في اليمن، القائم على الاختيار والانتخاب الذي تؤيدُه الشورى المُشار إليها في سورة النمل لقصة ملكة سبأ مع سليمان، عليهما السلام.

وقد اتبع الهمداني منهجية علمية متقدمة في كتابه ونقله الأخبار، بعيدًا عن مبالغات المتزيّدين والرواة، فالخبر الذي يورده الهمداني، يُخضعه للعقل ولمنطق التحليل العلمي، فهو يقوم برواية الرواية كما سمعها، ويورد الخبر كما تتناقله ألسنة الناس، ثم يعطي حكمه على إمكانية صحتها، محكما المنطق والعقل، ومثال ذلك ما يدعيه بعض الناس من أنّ الجنّ والشياطين هي التي بنت قصر سلحين، فهو يدحضُ هذا الادعاء، وينفي القول من أن ذلك مكتوبٌ في نقوش مساند اليمن، مستندًا إلى معلوماته التاريخية، وإلى أسلوبه الإقناعي كقوله: ولا يمكن أن تكون الجن كتبت هذا لعلتين، الأولى: أنهم ذكروا انهم بنوا سلحين في سبع وسبعين سنة، ولم يكن بين موت سليمان، وصدر ملكة سبأ عنه

الا سبع سنين بقول المكثر، وعند موته رفعت الجن أيديها من الخدمة، وقبضت رِبَاقها «الرباق حبلٌ ذو عُرًى لربط الدواب»، من ملك السحرة، والثانية: قول علقمة، يذكر أن الناس بنوها لا الجن:

أبعد سلحين لا عين ولا أثر أم بعد بينون يبني الناس أبياتا

ويقول الهمداني في الجزء الثامن من كتاب الاكليل: وقد أكثر الناس في بناء الجن لقصور اليمن، فما ذلك إلا من زيادات الناس في الأحاديث.

وفي موضع آخر من نفس الكتاب يقول الهمداني كذلك: والعرب ينسبون كل مستطرفٍ من البناء إلى سليمان بن داود عليه السلام، كما ينسبون كل قديم إلى عاد.

الجزء الأول

تتمحور فكرة الجزء الأول من كتاب الإكليل في مبدأ الخليقة وأصول الأنساب، ونسب مالك بن حمير، وهو في هذا الجزء يفصل القول في خولان، فقد سكن الهمداني صعدة عشرين سنة، أطلّ على أخبار خولان وأنسابها ورجالها، كما لو كان قد أطل على بطن راحته، وقرأ بها سجل محمد بن أبّان الخنفري، المتوارث من فترة ما قبل الإسلام. وكان أول من اشتغل بنشر هذا الجزء العلامة السويدي «أوسكار لوفجرن»؛ حيث حقق

ونشر ثلثه تقريبا في مدينة «ابسالا» عام ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م، ونشر الجزء كاملا بعد ذلك القاضي محمد بن علي الأكوع عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

الجزء الثاني:

في نسب ولد الهميسع بن حمير ونوادر أخبارهم، وقد بذل القاضي محمد بن علي الأكوع جهد مفيدًا في تحقيقه ونشره عام ١٣٨٦/ ١٩٦٦م.

الجزء الثالث:

في فضائل قحطان ومناقب اليمن، وهو جزء مفقود.

الجزء الرابع:

يُعنى بالسيرة القديمة لحكام اليمن إلى عهد التبع اليماني أبي كرب أسعد.

الجزء الخامس:

يُعنى بالسيرة الوسطى من أيام أبي كرب أسعد إلى أيام يوسف أسأر يثأر المشهور بذي نواس.

الجزء السادس:

يروي في هذا الجزء السيرة الأخيرة في تاريخ اليمن القديم إلى ظهور الإسلام. وربما يجد الباحث بعضَ مادة تلك الأجزاء الثلاثة المفقودة في أخبار عبيد بن شريه، وكتاب التيجان لوهب

بـن منبـه روايـة ابـن هشـام، وقصيـدة نشـوان الحمـيري وشرحهـا.

الجزء السابع:

مفقـود ويتعلـق بالتنبيـه عـلى الأخبـار الباطلـة والحكايـات المسـتحيلة. ويمكـن لنـا الاسـتدلال عـلى نمـط مـن محتويـاتِ هـذا الجـزء بالعـودة إلى الجـزء الثامـن مـن الكتـاب، حيـث يـورد الهمـداني بعـض الحكايـات المستحيلة والأخبـار الباطلـة كقولـه: إن الشـياطين كتبـت في أحـد المسـاند أنهـا بنـت سـلحين «قـصر مـأرب» في سـبع وسـبعين سـنة، فلعـل في مثـل هـذه الأقـوال مـا يومـئ إلى محتوياتـه.

الجزء الثامن

في ذكـر قصـور حمـير ومدافنهـا ومحافدهـا ومـا حُفـظ مـن شـعر علقمـة بـن ذي جـدن والمراثـي والمسـاند أو القبوريـات، وهـذا الجـزء هـو أشـهر الأجـزاء وأكثرهـا توافـرا لمخطوطاتهـا، ذلـك لأنّ هـذا الجـزء قـد شُـحن بأخبـار الكنـوز المدفونـة والمعـادن القبوريـة، والنفس مولعـة بالغرائـب وحـب المـال. وكان أول مـن نـشر هـذا الجـزء كامـلا هـو انسـتانس الكرمـلي عـام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، ثـم نقلـه إلى الإنجليزيـة وحققـه نبيـه فـارس عـام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م، وأخـيرا نـشره القـاضي محمـد عـلي الأكـوع.

الجـزء التاسـع: ويـروي أمثـال حمـير وحِكَمهـا باللسـان الحمـيري، ويتحـدث عـن حـروف المسـند. وهـو مفقـود أيضـا، ولكـن علـم

النقوش اليمنية القديمة في العصر الحديث قد يعوض بعض ما ورد في هذا الجزء؛ بل إن دراسة هذه النقوش قطعت شوطا كبيرًا منذ أن بدأ الاهتمام بها في القرن الماضي، وجزء كبير منها من مقروآت باحثين أجانب.

الجزء العاشر

في أنساب همدان ومعارفها وعيون أخبارها، وقد نشره في القاهرة عام ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م، العلامة محب الدين الخطيب.

ويُروى عن المستشرق الألماني المعروف «نولدكه» أنه كان يقول بأنه يتمنى ألا يفارق الحياة إلا وقد رأى ثلاثة كتب هي أندر من الكبريت الأحمر، إشارة إلى أهميتها، وذكر من بينها كتاب الإكليل للهمداني.

* * *

الإمام الشوكاني
جهوده الفكرية ومواقفه السياسية

لم يكن الإمامُ محمد بن علي الشوكاني ١١٧٣ــ ١٢٥٠هـ فقيهًا ومجددًا دينيًا فحسب؛ بل كان صاحبَ نظرٍ عميقٍ في الفكرِ والسّياسةِ والتاريخِ أيضًا.

كانت مؤلفاتُه في أغلبها ــ والتي تزيد عن ١٢٠ مؤلفًا ــ ردًا على رُكامات الزيفِ الكهنوتي خلال مئاتِ السنين قبله، في تلك البيئة التي تفرّخ فيها هذا الفكر كثيرًا، داحضًا أباطيلها وكهنوتها بأدواته العلمية الراسخة، وقد فاقَ فقهاء الكيان الإمامي علما وفقهًا وثقافة، فكان موضع احترام وتقدير الخاصة والعامة، ولهذا تولى منصب «قاضي القضاة» لثلاثة آئمة متتالين، المنصور علي بن المهدي عباس، والمتوكل أحمد بن المنصور علي، والإمام المهدي عبدالله بن المتوكل أحمد.

وعودة إلى أشهر مؤلفاته التي كانت ردا مباشرا على ما ساد من معارف فقهية وثقافية في وعي الناس آنذاك، من نتاج فقهاء الإمامة وأئمتها الذين سوّقوا للناس ثقافة مغلوطة وفكرا مزيفا، توارثوه عن أسلافهم، فانبرى الإمامُ الشوكاني مفندا أباطيلَ وخرافات هذا الكيان، كالتالي:

ــ ألّفَ موسوعته الفقهية «السيل الجرار المتدفق على حدائق

الأزهار» ردًا على كتاب «متن الأزهار في فقه الأئمة الأطهار» لأحمد بن يحيى المرتضى، والكتاب الأخير يعتبره الأئمة منذ القرن الثامن الهجري وحتى اليوم المرجعية الدستورية لهم، فألف الإمام الشوكاني موسوعته الفقهية المذكورة مُفندًا دعاوى ومسائل المرتضى التي ناقشها ودحضها، ومنها مسألة «الخُمس» التي أبطلها بالأدلة العقليّة والنقليّة، إلى جانب مسائل أخرى؛ الأمر الذي جعل فقيها جارودية متعصبا كابن حريوة السماوي يفقد صوابه، محاولا الرد على الإمام الشوكاني في كتابه «الغطمطم الزخار المطهر لرياض الأزهار من آثار السيل الجرار» ويقصد برياض الأزهار هنا كتاب المرتضى، من آثار «السيل الجرار»: كتاب الشوكاني، وقد ملأ كتابه المذكور بأقذع الألفاظ التي لا تليقُ بإنسان، ناهيك عن شخص يدعي العلم والفضيلة والفقه، وجميعها تنال من الإمام الشوكاني..!

ولم يقتنع ابن حريوة السماوي بذلك، بل هجا الشوكاني بقصيدة شعرية خاصة، كما فعل الشاعر «الحسن بن علي بن جابر الهُبَل» مع الإمام المقبلي من قبل.

وحين كان كتاب «الكشاف» للزمخشري في التفسير هو السّائد في عهده، والمعتمد لدى الأئمة، فقد ألف الإمام الشوكاني موسوعته العلمية في التفسير المسماة «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير» وتعمد الإمام الشوكاني أن يتبع فيه نهج الزمخشري الذي ركز فيه على اللغة من نحو وصرف وبيان،

ولكن مصححًا بعض المفاهيم التي تتفق مع رأي الجمهور، والتي شذ فيها الزمخشري، ذو الفكر المعتزليّ. فحلّ كتاب فتح القدير محل كتاب الزمخشري بعد ذلك. علما أن للمقبلي أيضا كتاب بعنوان «الإتحاف في الرد على الكشاف".

وفيما يتعلقُ بعلم أصول الفقه كان الكتاب السائد حتى عهد الشوكاني في الأصول «شفاء غليل السائل عما تحمله الكافل» والمعروف بـ «كافل الطبري» للقاضي علي بن صلاح الطبري، وهو في أساسه شرح لكتاب: «الكافل بنيل السؤول في علم الأصول» لمؤلفه محمد بن يحيى بهران. وكلاهما فقيهان جارودیان متعصبان. فألف الإمام الشوكاني كتابه المعروف: «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول». ومن يومها ساد هذا الكتاب وتسيّد على ما عداه من كتب الأصول، ولا يزال.

من ناحية ثانية أيضا وخلال تاريخ الأئمة من قبله، وحتى تلك الفترة تعمد الأئمة وفقهاؤهم أن يقتصروا في تدويناتهم التاريخية على تاريخ أئمتهم فقط دون غيرهم من اليمنيين، فحيث فتحت أي كتاب من كتبهم لا تكاد تجد إلا الفقيه الفلاني من آل البيت والإمام الفلاني من آل الرسي، وهكذا. فألف الإمام الشوكاني موسوعته التاريخية في علم التراجم: «البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع». وعدد فيه العلماء والفقهاء من مختلف الطبقات والفئات، من قحطانية وعدنانية، غير متعصب لفئة دون أخرى، كما يفعل الأئمة وفقهاؤهم، بدون الإشارة إلى

سياسته هذه، ولسان حاله: هذا هو اليمن الكبير، وليس من يسمون أنفسهم آل البيت فقط.

وحين كان كهنة الإمامة لا يأخذون من الأحاديث النبوية إلا ما وافقَ هواهم فقط مما يسمونها أحاديث آل البيت، وأغلبها ــ إن لم تكن كلها ــ مكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألّفَ الإمامُ الشوكاني موسوعته الحديثية «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة»؛ حيث فنّد دعاواهم وردّ ما يسمونها أحاديث تمجدهم وتُعلي من شأنهم.

وحين شاعت فكرة لعن الصحابة والإساءة إليهم من قبل غلاة الهادوية في عصره قارعهم الحجة ونازلهم مواقفهم الغالية في الرفض، فألف كتابه» إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي». وقد قال الشوكاني بنفسه عنه: «ولما ألفت الرسالة التي سميتها: إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي، ونقلت إجماعهم من ثلاثة عشر طريقة على عدم ذكر الصحابة بسبٍّ أو ما يقاربُه وقعت هذه الرسالة بأيدي جماعة من الرافضة الذين بصنعاء.. فجالوا وصالوا، وتعصبوا وتحزّبوا، وأجابوا بأجوبة ليس فيها إلا محض السِّباب والمُشاتمة، وكتبوا أبحاثا نقلوها من كتب الإمامية الجارودية..»، مشيرا إلى أنه لم يقصد من الرسالة «إلا مجرد الذب عن أعراض الصحابة الذين هم خير القرون".

وحين بالغ الأئمة وفقهاؤهم في تقديس قبور وأضرحة

أسلافهم وجعلوا منها مزارات، كما جعلوا لها قبابا وعتباتٍ يكادون يقدسونها، ألّفَ « شرح الصدور بتحريم رفع القبور".

إلى جانب هذه المواقف العلمية التاريخية أسس مدرسة في القضاء، بعدالته الصّارمة وفكره المستنير، وأسهم ـ إلى حد كبير ـ في الحد من ظلم الإمامة وولاتهم وعُمّالهم في مختلف أصقاع البلاد حينها.

لهذا حقد عليه الأئمة وغلاة الهادوية مع أتباعهم من بعده إلى حد أن بلغ الحقد بالإمام الناصر عبدالله بن الحسن، ت:١٢٥٦هـ أن قرر نبش قبر الإمَام الشَّوكاني وإحراقه، لولا أنه تراجع حين هددت قبائل خولان التي ينتمي إليها الشَّوكاني بالهجوم على صنعاء. بعدها أمر اليهود بالوقوف على قبر المهدي عبدالله وقراءة التوراة عليه، لإقراره الشوكاني على منصبه بعد أبيه وجده..!

وقد قال الإمام الشوكاني عن رافضة عصره من الهادوية: «.. وهكذا من ألقى مقاليد أمره إلى رافضي وإن كان حقيرا، فإنه لا أمانة لرافضي قط على من يخالفه في مذهبه ويدين بغير الرفض؛ بل يستحلُّ ماله ودمه عند أدنى فرصة تلوح له؛ لأنه عنده مباح الدم والمال، وكل ما يظهره من المودة فهو تقيَّة يذهب أثره بمجرد إمكان الفرصة. وقد جربنا هذا تجريبًا كثيرا، فلم نجد رافضيا يخلصُ المودة لغير رافضي، وإن آثره بجميع ما يملكه، وكان له بمنزلة الخول، وتودد إليه بكل ممكن. ولم نجد في مذهب من المذاهب المبتدعة ولا غيرها ما نجده عند هؤلاء من العداوة

لمن خالفهم؛ ثم لم نجد عند أحد ما نجد عندهم من التجري على شتم الأعراض المحترمة، فإنه يلعن أقبح اللعن، ويسب أفظع السب، كل من تجري بينه وبينه أدنى خصومة وأحقر جدال وأقل اختلاف. ولعل سبب هذا ـ والله أعلم ـ أنه لما تجرؤوا على سب السّلف الصالح هانَ عليهم سبُّ من عداهم، ولا جرم فكل شَديد ذنبٍ يهون ما دونه..".

هذا هو الإمام الشوكاني شخصية علمية تجديدية وسياسية، مناوئة للكهانة والزيف المتسربل زُورًا بالدين. شكلت معارفه ونتاجاته ثقافة جديدة للجيل الذي تلاه وإلى اليوم، وقد كان الناس قبله غارقين في وحل ثقافة الكهانة الإمامية الزائفة بتعصبها المقيت.

* * *

أصل العرب وأم الدنيا
مصر واليمن.. واحدية الروح

لماذا يحبُّ اليمنيون مصر؟ ولماذا لم ينسوا جمال عبدالناصر حتى اليوم؟

لن أجيبَ أنا. سأستعيرُ هنا قلمَ المؤرخ اليمني المعروف الأستاذ الدكتور أحمد قايد الصايدي، فقد أفاد وأجاد، وشعرتُ وكأنه كتب بقلمي، أو أني كتبتُ بقلمه.

وقبل أن نستعرضَ ما كتبه الدكتور الصّايدي، نتوقف أولا عند العلاقات اليمنية المصرية القديمة التي تعودُ إلى آلاف السنين، كما ذكرت نصوصُ المسند اليمنية؛ إذ كانت هناك اتصالاتٌ تجارية بين البلدين/ الحضاريين، وكانت هناك بعثاتٌ مصريّة إلى بلاد اليمن؛ حيث منتجات البخور واللبان والمُر، والتي كانت تباع بسعر الذهب، لاستخدامها في الطقوس الدينية والمناسبات الاجتماعية، وفي التطبيب. وثمة نصوصٌ مسندية يمنية في مصر تؤكد ذلك. ولدينا في اليمن ميناء تسمى ميناء قنا، على اسم قنا المصري، وإليها بعث الملك الفرعوني المصري «منتوحتب» بعثة تجارية، لإحضار الصمغ ذي الرائحة الزكية، وأن هذه البعثة توجهت من «قفط» على رأس حملة إلى البحر الأحمر، ومنه إلى

جنوب جزيرة العرب، ووصلت إلى «سبأ» و «واك» و «رهان»، وأحضرت منها الحجارة النفيسة لتماثيل المعابد. حسبما تحكي النصوص.

وقد أفضت هذه العلاقات التجارية إلى علاقات سياسية وعلاقات اجتماعية، حيث تذكر بعض نصوص المسند المعينية التي اكتشفها هاليفي عام ١٨٦٩م في قرناو عاصمة معين بالجوف أن بعض التجار المعينيين قد تزوجوا من مصرياتٍ، نتيجة لتحركاتهم التجارية في أرجاء متفرقة من بلاد العالم، وقد كان المعينيون تجارًا وأصحاب ريادة تجارية مشهورة، أدت إلى خلق هذه الروابط، وبعد زواج هؤلاء التجار عادوا إلى وطنهم وبصحبتهم زوجاتهم، وقد دونوا عقود زواجهم على أعمدة المعابد، وفقا لشرائعهم. وذكرت النقوش المسندية أسماء هؤلاء الزوجات الثمان، وهن: تخبث، تبأ، تبأ، تحيو، أمة شمس، بدر، اختمو. وهي مدونة في النقوش اليمنية إلى اليوم.

في العصر الوسيط، ــ ومع فتح مصر أثناء حكم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ــ كان اليمنيون من أكثر القبائل العربيّة في جيوش الفتح، فكان أغلبُ جيش عمرو بن العاص الذي فتح مصر وجزءًا من شمال أفريقيا من اليمنيين من قبائل كهلان وحمير. وتذكرُ المصادرُ التاريخيّة أن فاتح مدينة دمياط هو المقداد بن عمرو البهراني الحميري، من أبناء صعدة باليمن، وهو فاتح

قلعة الفرماء الحصينة مع القائد اليماني أبرهة بن الصباح، وقد كان المقداد أول فارس من الصحابة في الإسلام. وفي الغالب لم يعودوا، فقد استوطنوا مصر، وإلى اليوم. وقد ولي مصر في العهد الأموي فقط أحد عشر واليا يمنيًا. وكتبُ التاريخ مليئة بقصصهم، ومنها الخطط للمقريزي. وكتاب سعد زغلول عبدالحميد تاريخ المغرب العربي، وغيرهما.

بعد ذلك كانت الدولة الصليحية في اليمن على اتصال روحي بمصر الفاطمية حينها، ثم الدولة الأيوبية بعد ذلك واتصال الرسوليين بهم من خلال إسهام اليمنيين العسكري ضد الحروب الصليبية التي قادتها مصر.

وعودة إلى قلم الدكتور الصايدي، للإجابة عن السؤال، يقول:

"مع تدفق وحداتٍ من الجيش المصري إلى اليمن، تدفق جيشٌ آخرٌ من الخبراء الإداريين والاقتصاديين والتربويين والإعلاميين والرياضيين وغيرهم. وكانت مهمة هذا الجيش المدني الموازي مهمة حضارية، وهي بناء الدولة الحديثة، بمؤسساتها المختلفة ونشر التعليم الحديث، وإرساء قاعدة اقتصادية وتنموية حديثة، بما في ذلك إنشاء البنوك، واستبدال العملة القديمة، وتنشيط التبادل التجاري مع الخارج، ورفع الحواجز الجمركية في الداخل.

وبفضل هذا الجيش المدني أمكن البدء في تحديث اليمن، وتشكيل نواة دولته الحديثة، ويمكن أن نوجز أبرز ملامح

التحديث وبناء الدولة فيما يلي:

ففي مجال الإدارة تم وضع الهياكل الإدارية لأجهزةِ الدولة ووضع الأنظمة واللوائح، وتوصيف الوظائف وتحديد الصلاحيات وتأهيل الكوادر الإدارية اليمنية في كل الوزارات والمؤسسات والمصالح الحكومية، لتتولى العمل بنفسها، تحت إشراف وتوجيه خبراء الإدارة المصريين.

وفي مجال الاقتصاد أنشئ البنك اليمني للإنشاء والتعمير بخبراتٍ مصرية، وسُمح لبعضِ البنوك الخارجيّة بفتح فروع لها في اليمن، وطُبعت عُملة ورقية بدلا من العملة الفضية «ماريا تريزا» التي ظل اليمنُ يستوردها ويستخدمها لما يزيد على قرنين من الزمن، ولم تكن عملة عملية بسبب وزنها الثقيل وصعوبة حملها، وقلة ما هو معروض منها في السوق، مما شكل عائقا أمام الحركة التجارية وحال دون انسياب المعاملات المالية. كما نشطت الحركة التجارية بفعل الحراك الجديد في المجتمع واتساع دائرة التوظيف في أجهزة الدولة، بما يعنيه ذلك من توفر السيولة اللازمة وارتفاع القدرة الشرائية لدى المواطنين، وتم ضبط حركة التبادل التجاري مع الخارج من خلال وزارة التجارة وتطوير قدرات الإدارة الجمركية.

وفي مجال التربية والتعليم استقدم المصريون آلاف الأساتذة والخبراء التربويين، وأنشأوا المدارس الحديثة وتوسعوا فيها

ونقلوا تجربة الثورة المصرية في جعل التعليم مجانيا وحقا لكل طفل يمني، فانتشرت المدارس في المدن، وفي مختلف المحافظات، ووصلت بعض المناطق إلى الأرياف، وكان المنهج مصريا والكتاب مصريا والأستاذ مصريا.

وفي مجال الإعلام استقدم المصريون مذيعين وصحفيين وخبراء إعلاميين تولوا إصدار الصحف وتحديث إذاعة صنعاء، ولما كانت إذاعة صنعاء في عهد الإمام بدائية في إمكانياتها ومحدودة الإرسال من حيث الزمن ومن حيث المدى فقد أهدت مصر لليمن في الأشهر الأولى من قيام الثورة محطة إذاعية حديثة متكاملة مع مديريها وخبرائها ومهندسيها، مما مكن إذاعة صنعاء من إيصال صوت اليمن إلى مدى أوسع داخل اليمن وخارجه، كما مكنها من البث طوال النهار وساعات الليل.

وفي مجال الدفاع والأمن أنشأ المصريون وحدات عسكرية جديدة في مختلف الصنوف، وفتحت مصر كلياتها ومدارسها العسكرية لشباب اليمن، وتمكنت خلال فترة قصيرة من تكوين نواة جيش يمني حديث، بهيكلته وتسليحه ومعداته وأنظمته، كما أنشأت جهاز أمن يمني حديث.

وفي مجال الرياضة استقدم المصريون مدربين رياضيين، يتولون تدريب طلاب المدارس وتدريب الفرق الرياضية، وينظمون دورات الألعاب الرياضية ويشرفون عليها.

ولم تمض خمس سنوات من عمر الثورة حتى كان اليمن قد وضع قدميه على عتبات العصر الحديث، بفضل جهود الأخوة المصريين، وموقف الثورة المصرية وقائدها جمال عبدالناصر. كل هذا مع استمرار المعارك في كل جبهات القتال.. لقد انتهى الدور العسكري المصري وقد تنساه الذاكرة الجمعية مع توالي الأجيال وتعاقب الزمن؛ أما الدور الحضاري فلا أظنه سيُنسى..». أ. هـ.

* * *

علي مهدي الشنواح..
«يا جياع الأرض ردوا حقكم من ناهبيه»

هناك من يكتبُ بمداد قلمه، وهناك من يكتب بدماء قلبه، هناك من يكتب للقضية، وهناك من تكتبه القضية. وأظن الثائر المناضل علي مهدي الشنواح ــ رحمه الله ــ من هؤلاء الرجال الأفذاذ الذين كتبوا بمداد القلب، وحركتهم الأعاصير وجدانيا قبل أن تستثيرهم سياسيًا.

كان الرجلُ واحدًا من أبناءِ الشعب الذين ذاقوا مرارةَ البؤس والحرمان أيام الإمامة بحكمها الكهنوتي الطغياني، إلا أنه لم يخضع لنير العبودية، ولم يستكن لسوطِ الجلاد، كما فعل كثيرون، خضعوا للنير، واحتكموا للسوط. فثار وقاوم بالكلمة والبندقية معا.. ربما ساهمت البيئة في صناعةِ شخصيّته، وربما كان للثقافة والنبوغ السياسي المبكرين دورٌ في ذلك، وربما الأمران معًا مجتمعين؛ علمًا أنه ينتمي إلى أسرةٍ شاعريّة بكاملها، رجالا ونساء..

ينتمي الشُّنواح نِضاليًّا إلى المدرسةِ القردعيّة، حماسة، وعزمًا، وإصرارًا، وفوق هذا نفسٌ أبيّة تأبى الضيم، وترفض الاستكانة، كما ينتمي شعره إلى رحم القضية التي تسكنه فارتبط بها في معظمه، وهو الشأن مع أغلب قبائل المشرق «البيضاء ويافع» التي قاومت الإمامة باستماتة، كما تشي بذلك أدبيات الخصم

نفسه، خاصة رسائل السفاح عبدالله بن حمزة إلى مارب والجوف، ناهيك عن الأئمة القاسميين بعد ذلك. وتذكر المصادر التاريخية أن للإمام المهدي المعروف بصاحب المواهب أربعين غزوة غزاها على بلاد المشرق..! والمقصود بها البيضاء ويافع، كما أسلفنا، هذا إضافة إلى غزواته على مارب والجوف.. وقد كانت مدينة حريب مسقط رأس الشاعر المناضل الشنواح تتبع لواء البيضاء يومها، وهي اليوم جزء من مارب..

إنه الثائرُ المحرض، والثائر المتمرد على مراسيم الطاعة وتقبيل الركب، والخنوع للظالمين، مثله مثل صالح سحلول، وصالح المقالح والمحلوي والحورش وغيرهم. ففي الوقت الذي يقول سحلول:

ان كنت تحني للطغاه جبهتك – ماأسخفك ما أقل عقلك .
ان كان حباب الركب مطلبك – حبب ركب واقدام أمك
لا بارك الله في الذي علمك – حباب ركب من لا يحبك

يقول الشنواح بنفس الروح المتمردة:

«يا جياع الأرض ردّوا حقّكم من سارقيهْ
خبزكم لا زال في صحن الملاعين عجينة
أيَّتها الثكلى الحزينة
يا فقيرًا وسط أكواخ حزينة
يا فقيرًا في المدينة

أنت ربَّان السفينة

يا جياع الأرض ردّوا حقّكم من ناهبيهْ.

إنها روح متقدة بالنضال والكبرياء، تجلت أكثر في آخر محطات القتال الميدانية في حرب السبعين بصنعاء، بعد أن صدح عاليا بشعار: «الجمهورية أو الموت» وتلقفه من بعده طلبة المدارس والضباط الصغار وكل فصائل المقاومة التي لعبت أدورًا بطولية عظيمة يومها. فقد كان المناضل الشنواح ينظمُ القصائد ويكتب المقالات السياسية ويلهب الجماهير بالخطب، بروح ملؤها الكبرياء والثقة بالنصر، لا في الشطر الشمالي من الوطن يومها فحسب؛ بل حتى في جنوب الوطن الذي اتجه إليه بعد ذلك، وعمل من داخل صفوف الجماهير ضد الظلم والقهر والعبودية..

أنا من أنضج الخبز الجميل- على لهيب القلب- زيتونا

وأسقيت الحقول - لترتوي- دم الشرايينا

وتحت ضلوعي الصفراء آويت الملايينا

رحم الله المناضل الشنواح، وثبت خطى الأحفاد على السير في طريق النضال الذي سلكه.

* * *

الإمامة..
تاريخ من الغدر والخيانة

من «شب على شيء شاب عليه» و «من شابه أباه فما ظلم». و:

إذا كانت الطباع طباع سوء فلا يغني أدب ولا أديب

لن نأتيَ بجديد إذا قلنا أن البنية السيكولوجية للنظرية الهادوية بنية عدوانية، كأي نظرية عقائدية، لا يتوقف أمر تعاطيها مع الآخر في مسألة القبول به، أو التعامل معه؛ بل في نقض العهود والاعتداء عليه في أخص خصوصياته، اعتداء مادي ومعنوي معا.

ويمثل نقض العهود والغدر بالمواثيق واحدا من تلك الاعتداءات التي جُبلت عليها الإمامة في اليمن ـ والحوثي أحد حلقاتها التاريخية ـ كثقافة وسلوك معا منذ نشأتها الأولى في نهاية القرن الثالث الهجري وحتى اليوم، ذلك تمارس السياسة مفصولة عن الأخلاق، وفقا للمبدأ الميكافيللي: «الغاية تبرر الوسيلة». وهي تمارس الحكم من أجل التحكم الذي يترتب عليه الامتياز المادي والمعنوي، كما يترتب عليه الكسب غير المشروع، من أي طريق كانت، وفقا للمعتقد الشائع لديهم تاريخيا: «الحلال ما حل باليد"..!

جاء يحيى حسين الرسي ـ إمامهم الأول ـ إلى اليمن لاجئا،

فمنحه اليمنيون شرف الضيافة، غير أنه انقلب على أدب الضيافة وبدأ يستجلب أقاربه وبني عمومته من الجيل والديلم، ليؤسس لنفسه وأبنائه مجدا سياسيا معلنا:

بنيتُ لكم بيتًا من المجد سُمْكه ... دوين الثريا فخرُه مُتتابع
ألم تعلموا أني أجودُ بمهجتي ... ومالي جميعًا دونكم وأدافع
فما أحدٌ يسعى لينعش عزكم ... سواي وهَذا عند ذي اللب واقع

وخارجًا عن ربقة الخلافة الإسلامية القائمة آنذاك «العباسية» وعن دولة المسلمين، مفضلا الكفار عليهم، يقول في بني عمه خلفاء بني العباس: «.. بل الكفار الطغاة أوفى بالعهود منهم، وأحفظ لعهودهم منهم لعهدهم، وأقل اجتراء منهم في كثير من الأمور على خِلافهم، وهم في ذلك يدعون «العباسيين» أنهم أئمة المسْلمين، وقادة المؤمنين، وخلفاء الواحد الكريم، وولاة الواجد العظيم. كلا.. والذي نفسُ يحيى بيده، ما ولَّى الله أولئك في خَلقه، ولا قلَّدهم شيئًا من أمره، ولا أجَاز لهم أمرًا ولا نهيًا في شيءٍ من أرضِه".

أيضا انقلب على رؤوس القبائل الذين ساندوه، ونكث وعوده معهم، وقد ضمن ولاء بعض القبائل له، فحارب بعضهم ببعض.

وعلى ذات الوتيرة سار أبناؤه وأحفاده من بعده إلى يومنا هذا، وقد جعلوا من «التقية» دينا، ومن الغدر عقيدة، وكل مواقفهم التاريخية تثبت أنهم لا يجنحون للسلم إلا في حال الضعف فقط،

وذلك لأخذ استراحة محارب، ثم الانقضاض من جديد، ولذا كثر الخروج والخروج المضاد خلال مسيرتهم التاريخية، فمنذ ولي الحكم بعد يحيى حسين الرسي نجله المرتضى وحتى حكم بيت حميد الدين ليس من إمام إلا ونقض العهد وخرج على من قبله، وليس من إمام إلا وخرج عليه مَن بعده، في سلسلة متوالية من النقض والغدر والانقلابات التي أحالت اليمن إلى جحيم من حروب أهلية مدمرة دمرت فيها حضارة عمرها بآلاف السنين؛ بل لقد خرج الابن على أبيه، وخرج الأخ على أخيه، وشواهد التاريخ في ذلك كثيرة.

لقد انقلبوا على جميع القيم والمبادئ الإنسانية خلال فترة حكمهم، متصرفين كعصابة لا كرجال حكم ضد الرعية والمواطنين، كما فعلوا مع المطرفية الجماعة العلمية الاجتهادية الأولى التي خرجت من ربقة التقليد والتعصب، وانقلبوا على أخلاقيات المجتمع ومبادئ الإنسانية في إعدام الرهائن من أبناء القبائل من الأطفال، كما فعل المطهر بن شرف الدين مع رهائن خولان، ومع أسرى «مَوْكَل» في رداع، والقصة مشهورة ومعروفة؛ ولا تزال حادثة الاعتداء والغدر على الملك عبدالعزيز آل سعود، رحمه الله أحاديث الكثير إلى اليوم، وهو يطوف في الحرم المكي طواف الإفاضة في ١٠ من ذي الحجة ١٣٥٣هـ ١٦ كانون الأول ١٩٣٥م. فبعد الانتهاء من الشوط الرابع استلم الملك عبدالعزيز الحجر الأسود، لإكمال الشوط الخامس، وإذا بشاب يخرج من

حجر إسماعيل شاهرًا خنجره لينقض على الملك، فيحول سعود ابنه دون وصوله إلى والده، بإلقاء نفسه فوق أبيه، فسددت الطعنة إلى ظهر سعود الذى كان خلفه في ذلك الوقت، مما أدى إلى جرحه جرحاً بليغا في آخر كتفه الشمال، كما هرع اثنان آخران للانقضاض عليه، ولكن حس الملك حالوا دون ذلك، وبعد التحقيقات كانت النتيجة أن هؤلاء مستأجرون من قبل ولي العهد أحمد يحيى حميد الدين آنذاك، وتأتي هذه الواقعة الغادرة عقب اتفاقية ١٩٣٤م بين الملك عبدالعزيز والإمام يحيى حميد الدين. مؤخرا..

ـ منذ المصالحة اليمنية التي رعتها المملكة العربية السعودية في العام ١٩٧٠م بين الجمهوريين والإماميين، تنازل الجمهوريون عن بعض الثوابت المهمة، من أجل توقيف الحرب ولمّ الشمل اليمني، ومع هذا فقد خانوا العهود، وعملوا على خلخلة بنية الدولة من الداخل، ليكللوا خيانتهم بعد ذلك بالانقلاب على المملكة العربية السعودية نفسها، بالتنكر لها، ثم التحالف مع إيران الخمينية عقب قيام ثورتها في ١٩٧٩م، عدوة المملكة العربية السعودية، وفضلوا إيران الخمينية البعيدة على الجار القريب، على الرغم من الروابط التاريخية ومن المصالح المشتركة. وهاهم اليوم يمثلون مِخلبًا ناشبا لإيران الخمينية ضد إخوانهم الأشقاء في الداخل اليمني، وضد المملكة العربية السعودية، بطائراتهم المسيرة وصواريخهم البالستية، والاعتداءات اليومية في الحدود الجنوبية.

ـ ومنذ العام ٢٠٠٤م، ومنذ تفجيرهم للحرب الأولى، جنح النظام السابق كثيرا للسلم والتصالح معهم، حد تنازله عن بعض الثوابت الوطنية أيضا، ومع هذا فقد انقلبوا عليها جميعا كلما شعروا بقليل من القوة تمكنهم من الزحف حتى شبرا واحدا تجاه العاصمة، فقد انقلبوا على كل الاتفاقيات وهي بالعشرات.

ـ لن ننسى هنا الانقلاب على مخرجات الحوار الوطني الشامل في العام ٢٠١٢م التي مثلت مخرجًا وحيدا لكل مشاكل اليمنيين، وقد أجمعت عليه كل القوى اليمنية، وباركته الدول الإقليمية الراعية وكذا المجتمع الدولي، علما أن هذا الحوار لمصلحتهم هم بالمقام الأول قبل غيرهم، ومع هذا انقضوا عليه..!

ـ أيضا.. اتفاقية السلم والشراكة الذي تم توقيعه عقب انقلابهم في ٢١ سبتمبر ٢٠١٤م مع كل القوى الوطنية، وأبوا إلا أن يتفردوا بالحكم وإدارة الدولة على طريقتهم، فركلوا الجميع بين غمرة فرائحهم وانتشائهم بالنصر الموهوم.

ـ إلى جانب هذا كانت هناك لقاءات مكوكية ومباشرة مع قيادات الشرعية، وقيادات إقليمية لوقف الحرب وعودة مؤسسات الدولة، كلقاءات جنيف والكويت ولقاءات أخرى في عمان والأردن وغيرهما، وجميعها انقلبوا عليها في صورة من صور الصلف السياسي المهووس بالسيطرة والتحكم ونفي الآخر، ولسان حالهم: نحن أو الطوفان من بعدنا، في أسوأ تعامل «شمشوني» فاشل، لا يمت إلى السياسة ولا إلى الأخلاق بأي صلة.

ـ خلاصة القول: على الرغم من مُرور مئات السنين؛ بل ما ينيف عن ألفٍ ومئتي عام إلا أن هذه الجماعة التي تحمل فكرة الإمامة ونظرية الاصطفاء، لم تستطع أن «تَتَيَمْنَنْ» أو تصطبغ بالصبغة اليمنية الخالصة على ما في البيئة اليمنية من موروث حضاري عريق، فلا يزالون يحنُّون إلى بلاد فارس، ويعتبرونها السَّند والملاذ الأول والأخير، ومن يطلع على «دامغة الدوامغ» للأديب أحمد محمد الشامي يدرك ذلك بوضوح ودون عناء، وهو يرد على لسان اليمن أبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني الذي تغنى وفاخر بيمنيّته في ملحمته المشهورة: «الدامغة» وقد رد على «دامغة الدوامغ» للشامي الأديبُ والمؤرخُ الشاعر مطهر بن علي الإرياني رحمه الله في ملحمة أخرى سماها: «المجد والألم». فأي غدر وأي خيانة أكبر من خيانة الأوطان؟!

والحقيقة كما صورها الشاعر عبدالله حُمران، مخاطبا هؤلاء القوم:

وهبناكم الحكم إذ كنتم تهيمون في بقعٍ خالية
وقلنا يهانون أهل لنا ولا عاشت القيمُ البالية
وصرنا لكم في المُلَمَّات جندا وصرتم بنا قممًا عالية
مزجنا خلال السنين الطوال دمانا بكم حرة غالية
ولكنكم رغم مر السنين بقيتم على أرضنا جالية!!

* * *

اليمنيون في أطول قصة نضال يعيشون جوعى.. يموتون غرباء

أطولُ قصّة نضالٍ في تاريخ الإنسانية قاطبة هي نضال اليمنيين، والسبب الإمامة.

أكبر شلال دم عبر التاريخ نزف وينزف هو دماء اليمنيين، والسبب الإمامة.

أغزر دموع حُزن نزفت من مآقيها الحزينة دموعُ اليمنيات، والسبب الإمامة.

أوسع تشرد في التاريخ هو تشرد اليمنيين، والسبب الإمامة.

أسوأ مظلمة إنسانية في التاريخ هي مظلمة اليمنيين، والسبب الإمامة.

ومن المقدمة إلى التفاصيل..

ـ تناضلُ الشعوبُ والجماعاتُ عادة لعام.. لعامين.. لعقدٍ.. لعقدين.. لقرنٍ.. لقرنين من الزمن، ثم تحسم أمرها وينتهي الظلم، ليعمَّ السلم ويبدأ الرخاء؛ عدا اليمنيين فإنّ نضالهم وجعٌ ممتد منذ أكثر من ألف عام، واصلوا فيها الأنين بالأنين والحنين بالحنين والدم بالدم، ولا يزالون..!

لم تخلُ سنة واحدةٌ من كوارثِ الحروب ومآسي الاقتتال منذ

دخل يحيى حسين الرسي أرضَ اليمن وإلى اليوم. من معركة إلى معركة، ومن حرب إلى حرب، ومن فتنة إلى فتنة.

ـ منذ العام ٢٨٤هـ، حتى اليوم وشلال الدم سيالٌ لم يتوقف.

منذ ذلك الحين وأرواح اليمنيين تزهقُ على الآكام والتلال، وبين الصحارى والوديان؛ إما مدافعين عن عدالة قضيتهم الإنسانية، أو مغرر بهم في حشود أبناء وأحفاد الرسي..!

ولعمري.. لو قدر لتلك الدماء أن تتجمع في مكان واحد منذ ذلك الحين وحتى اليوم لكان بحرًا إلى جانب البحر الأحمر. ولو قدر لتلك الجماجم أن تتكوّمَ لكانت جبلا يفوق جبل النبي شعيب بصنعاء..!!

يفاخرُ إخواننا الجزائريون بكونهم «بلد المليون شهيد» تجاه الاحتلال الفرنسي، وما دَروا أنّ بلدًا عربيًا في جنوب الجزيرة العربية هو اليمن بلد المئة مليون شهيد منذ ما يزيد عن ألف عام.

ـ منذ جاء الرسي ودمع النساء اليمنيات سيالٌ منهمر كالسيل لفقدان: الابن، الأخ، الزوج، الأب، القريب، في فتنة تاريخية لم يشبعوا منها منذ أكثر من ألف عام..!

لم تبك نساءُ شعبٍ في الأرض كلها كما بكت اليمنياتُ على أقاربهن. واستقرئوا كلَّ حروب الإنسانية وصراعاتها عبر التاريخ فلن تجدوا للحالة اليمنية نظيرًا أبدًا.

ـ لم يتشرد شعبٌ في التاريخ كما تشرد الشعبُ اليمني، بمن في ذلك اليهود أثناء السبي البابلي. هلكت أرواح اليمنيين في البر والبحر والجو وهي تبحث عن مأوى آمن، ولقمة عيش كريمة، وقد سطت الإمامة على أرضهم وصادرت ممتلكاتهم. وسلوا هضاب شرق افريقيا الداخلية كم ابتلعت سهولُها وأنجادُها من أرواح في النصف الأول من القرن العشرين. وسلوا أرض الصين والهند واندونيسيا كم شردت الإمامةُ من اليمنيين إليها أثناء حكم آل القاسم؛ بل وسلوا أمريكا والغرب كله عن هجرات اليمنيين وغربتهم وعن مآسيهم الدامية منذ عقود طويلة من الزمن وإلى اليوم..! واقرؤوا إن شئتم «يموتون غرباء» لمحمد أحمد عبدالوالي، أو «غريب على الطريق» لمحمد أنعم غالب. واقرؤوا «غريبان وكانا هما البلد» للبردوني، و«البالة» لمطهر الإرياني؛ بل واقرؤونا نحن اليوم صفحاتٍ ماثلة أمامكم؛ مشردين في أصقاع الأرض. في الخليج ومصر وأفريقيا وتركيا وبريطانيا وماليزيا والشام وكندا وكل دولة من دول العالم لا تخلو من يمني بئيس مشرد. والسبب الإمامة.

ـ يا قوم.. مذ جاءت الإمامة وحياة اليمنيين حرب، وحربهم حياة، بين كل معركة ومعركة معركة ثالثة، وبين كل مأساة ومأساة مأساة أخرى. بين كل قتيل وقتيل قتيلٌ ثالث. نصِلُ الدمعة بالدمعة، والشّهقة بالشهقة، والوجع بالوجع، والسبب الإمامة..!

يا قوم.. مأساة اليمنيين لا تشبهها مأساة، وجع اليمني غير، ألمُه مختلفٌ عن كل الآلام. وجعٌ مركّب، وآلام مضاعفة، متألم في الداخل، متألم في الخارج، ووحدهم كرادلة الإمامة من يبنون القصور ويتلذذون برغد العيش.

لم تهدأ حياةٌ ليمني قط بسبب سرطان الإمامة، رئيس مغدور وآخر مشرد، تاجر مقتول وآخر منفي، سياسي معتقل وآخر نازح، مثقف مسجون وآخر ضائع، طفل يتيم وآخر عليل، مواطن مريض وآخر جاهل. والسبب الإمامة.

أيها اليمنيون، هذه قصتكم، وهؤلاء أعداؤكم أمامكم. فهل تنتصرون لأنفسكم وأنتم ملوك الأرض من نسل قحطان؟!

وتهنا وحكامنا في المتاه   سباعٌ على خطونا حوّم
فهم يقتنون ألوفَ الألوف   ويعطيهم الرشوةَ المعدم
ويبنون دُورًا بأنقاض ما   أبادوا من الشّعب أو هدموا
أقاموا قصورًا مداميكها   لحومُ الجماهير والأعظم
أخي إن أضاءت قصورُ الأمير   فقل تلك أكبادنا تُضرمُ

* * *

الفهرس

مقدمة	٧
القرآن الكريم كضمانة قومية	٩
مدخل إلى حضارة اليمن	١٤
ملامح اليمن الحضارية قبل الإسلام	١٧
المرأة في الحضارة اليمنية	٢٣
بلقيس ملكة اليمن	٢٦
برأت.. الكاهنة	٣١
أسماء بنت شهاب الصليحي	٣٢
أروى بنت أحمد الصليحي	٣٣
الوطن في القرآن الكريم	٣٥
الوطن في ضمير الشعراء	٤١
«استوصوا بالمعزى خيرا»	٦١
المنطلقات الكبرى في الثقافة اليمنية	٦٦
الدولة الرسولية في اليمن	٧٣
الأوقاف اليمنية	٨٩
في طريق البخور	٩٥
في رحاب الزعيمين	١٠١

سبتمبر وأكتوبر جناحا اليمن الكبير	١٠٦
المملكة واليمن..	١١٢
مع البردوني في اليمن الجمهوري	١١٥
مع الهمداني في إكليله	١٢١
الإمام الشوكاني	١٢٨
أصل العرب وأم الدنيا	١٣٤
علي مهدي الشنواح..	١٤٠
الإمامة..	١٤٣
تاريخ من الغدر والخيانة	١٤٣
اليمنيون في أطول قصة نضال	١٤٩

التربية الوطنية
والإرشاد الفكري